أنوثة

وقصص أخرى

عبدالمعز صفوت

دار زهراء الشرق للنشر والتوزيع

أنوثة

اسم الكتاب: أنوثـة

المؤلف: عبد المعز صفوت

رقم الإيداع:١٤٩٥١

الترقيم الدولي

I.S.B.N

٩٧٨٩٧٧-٣١٤٥٧٣٦

حقوق النشر محفوظة

الطبعة الأولى ٢٠٢١

تصميم داخلي وتصميم

الغلاف : سارة سعدون

المراسلات:

١١٦ شارع محمد فريد - القاهرة

جمهورية مصر العربية

التليفون: ٠٠٢٠٢٢٣٩١٣٨٥٩

فاكس: ٠٠٢٠٢٢٣٩١٣٣٥٤

المحمول: ٠٠٢٠١٢٢٣١٧٧٥١٠

البريد الإلكتروني

Hagagbookshop@hotmail.com

الفيس بوك

HTTP://WWW.FACEBOOK.COM/ ZAHRAAELSHARODARELKAHERA

تويتر

HTTP://WWW.TWITTER.COM/ ZAHRAAELSHARO

اليوتيوب:

HTTP://WWW.YOUTUBE.COM/ USER ZAHRAAELSHAROBOOK

لايسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تجزئته في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر

ردمك: ٩٧٨٩٧٧-٣١٤٥٧٣٦

صفوت، عبد المعز

أنوثة (مجموعة قصصية) / تأليف: عبد المعز صفوت / ١ / القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، ٢٠٢٠م ١٢٨ص، ١٤×٢٠سم

١- القصص العربية

: العنوان ٨١٣,٠١

إهداء

إلى بحر اللغة وأستاذ الأجيال .....أبى

إلى التى وهبتنى جزءًا من روحها به أحيا .....أمى

إلى التى تعبت معى بحبٍ حتى يخرج هذا العمل إلى النور .... زوجتى

إلى ثلاث زهراتٍ أستمد من رحيقهن الأمل بناتى سما جنى نور

إليكم جميعا أهدى هذا الكتاب

عبدالمعز صفوت

القصة الأولى

سر النجاح

كالعادة ..الأرق يمزق أجفانى فلا أستطيع النوم، كانت مباراة طويلة ..عصيبة.. مرهقة بينى وبين وسادتى، كم تقلبت طوال الليل بلا فائدة وذهبت لدورة المياه مرارًا وشربت ماءً.. الكثير منه .. واستعرضت قصة حياتى منذ الميلاد، ومازال الليل طويلًا.. فتيًا .. أسود اللون.. أسود القلب ..قاسيًا حادًا.. جاثمًا فوق أنفاسي ..ومازلت فى تململى كما شهدت غروب الشمس رأيت شروقها ...لا فائدة.. نهضت متثاقلا وغسلت وجهى فلم أشعر بالانتعاش فقررت أن أستحم وبعد فترة طويلة تحت الماء خرجت من الحمام أفضل حالًا، أبحث عن ثيابى المتناثرة فى كل مكان.. وأنا - كما ترى - أضع ثيابى فى أى ركنٍ فى الشقة إلا الدولاب ! ..وبعدما وقفت نصف ساعة أمام مرآة الحمام أمشط شعرى، فتحت الثلاجة وأنا لا أعلم ما الذى سأفعله .. وأخذت أفكر.. هل أفطر؟ هل أنا جائع ؟.. أشعر أن بطنى قد التصقت بظهرى ولاتريد حراكًا .. بحثت عن شهيتى فوجدت أنى فقدتها، وقعت أسيرة معركتى مع الأرق بالأمس فكيف آكل وما الذى آكله؟ كلما نظرت إلى نوعٍ من الطعام تأباه معدتى وكأنها عروس جميلة تتدلل على الخطاب، فكلما عُرض عليها أحدهم رفضته!..

إلى أن قررت أن أعقد معها صفقة - معدتى- قررت أن أسلق بيضتين وأنا أعلم إنها تحب البيض المسلوق، وحاولت أن أقنعها أنه سيصبح لذيذًا خاصةً وقد وضعت عليه بعض الملح والكمون والفلفل الأسود..هلمّ ياصغيرتى فلتتذوقيه وأعدُكِ أن يعجبك مذاقه .. واستجابت..

بعدما غسلت فمى ووضعت قرصًا من النعناع المنعش لأزيل رائحة البيض - التى أكرهها كثيرًا- .. أغلقت كل شئٍ فى الشقة ونزلت قاصدًا الشارع الذى سيتلقفنى ثم يلقينى فى وسيلة مواصلات ترمينى أمام الصيدلية التى أعمل بها، أجدنى هناك أمام باب الصيدلية.. أفتح بابها وأضيئ الأنوار ثم أعدّ لنفسي فنجانًا من القهوة المركزة، وأتسلى بقراءة القصص والروايات الصغيرة التى أدسها فى ركنٍ خفى بعيدًا عن عيون الدكتور خالد صاحب الصيدلية.. تسألنى من أكون..

ألم أعرفك بنفسي حتى الآن ؟!

يبدو أن ذهنى مشتت فعلًا بسبب أنِّى - كما تعلم- لم أنم بالأمس.. اسمى علاء خريج كلية الصيدلة منذ ثلاث سنوات فقط ..أعيش فى شقتى بمفردى هذه الأيام لأن أسرتى كلها سافرت إلى دمياط حيث جنازة شخص ما لا أعرفه، تريدنى أن أصف لك شكلى ؟!..

أحيانا يكون للقارئ طلبات عجيبة.. لماذا تعتقد أن من حقك التعرف على ملامح بطل القصة التى تقرأها؟ وما الذى يهمك فى شكلى؟ .. إلا إن كنت تنوى التقدم لطلب يدى مثلا !

ولكن ربما كان هناك (آنسات) يقرأن تلك القصة؛ لذلك - لهن - أقول إنى وسيم .. وسيم حقًا.. لست طويلا ولاقصيرًا فأنا متوسط الطول رياضى الجسم، خفيف الظلِّ - كما يقولون- أسمر اللون، لا أحد يسألنى عن لحيتى فأنا أحلق ذقنى بشكل شبه يومى.. والآن بعد أن عرفت من أنا .. تسألنى ماذا حدث؟

آه نسيت... كنت أتسلى بقراءة إحدى المجموعات القصصية ومن حين لآخر يدخل أحدهم ليطلب علبة من الدواء أبيعها له، إن الدكتور خالد أعطانى نبذة عن كل أنواع الدواء بأسمائه المختلفة كما علمنى تركيب الدواء كذلك، أنا خريج كلية الصيدلة ..نعم .. ودرست هذه الأمور - أكاديميًا- لكن الخبرة العملية شيء آخر ستعرفه عندما تتخرج من الكلية وتتجه للعمل ..ومرت الساعات وأنا أبحر فى مجموعة قصصية ليوسف إدريس.. كانت رائعة .. وبينما أنا منهمك تمامًا طرق أذنى صوت أنفاس لاهثة لرجل خمسينى محتقن الوجه، خطفت (الروشتة)

منه سريعًا يبدو أنه مريض ربو يعانى ضيقا فى التنفس، دخلت إلى المعمل بخطوات سريعة, كنت أقرأ من الروشتة ثم أبدأ فى التركيب ..المعدلات مضبوطة.. النسب صحيحة.. لامجال للخطأ.. وبعدما انتهيت أعطيته الزجاجة وتسلمت منه الثمن، وقبل أن أفهم ما هناك كان فتح الزجاجة وشرب نصفها فى جرعة واحدة.. نظرت له بتعجب شديد .. لا أعتقد أنى أعطيت له زجاجة من الكولا! ولكن يبدو أن حالته كانت حرجة فعلًا لذا فقد تهاوى على الكرسي واحتقن وجهه وبدأ يسعل ثم بدأت أنفاسه تنتظم وأشرق وجهه ..وا بتسم

-لا تؤاخذنى يا بُنىّ

- ألف سلامة يا حاج...

- عبد الرازق ..اسمى عبد الرازق

- ألف سلامة يا حاج عبد الرازق

وهكذا أخذ قدميه وانصرف ..وعدت لعالم القصص الشيق حتى شممت رائحة أنثى.. نعم ..إن للأنثى رائحة تختلف عن رائحة الرجال .. رائحة جميلة.. رائحة ناعمة .. وبالفعل كانت عروس البحر تقف أمامي, حتى إننى نظرت نحو الأرضية أبحث عن الذيل وقطرات الماء ولكنى لم أجدهما فعرفت إنها إنسية مثلى، ابتسمت فأنارت الصيدلية

وخمس مبانٍ مجاورة، وأعطتني روشتة لمريض أعصاب مكتوب بها أحد أنواع المهدئات

- هل هذا الدواء لكِ؟

قلتها متظرفًا لكنها ابتسمت ولم ترد

- هل المريض قريب لكِ؟

- أعنى هل هو كبير أم صغير؟ سيفرق هذا فى جرعة الدواء ولكننى فشلت فى جعلها ترد.. فقط تبتسم.. وهنا فهمت الفاجعة،إنها خرساء!.. كل هذا الجمال الصامت.. سبحان الله دخلت لمعملى وأنا ألتقط بضعة سنتيمترات من المركبات الكيميائية المتراصة في زجاجات أمامى وأخلطها بحذر، وأخمن سن المريض لعله أبوها أو أمها .. إذن لن يقل عن خمس وخمسين في المتوسط.. أعرف أن ما أفعله خطأ ولكنى أعتمد على الحدس لعدم توافر المعلومات، ورجعت لنفسى أفكر في عروس البحر التي تقف في الخارج وأقول لو كانت هذه خرساء فمن يستحق الكلام إذن؟ .. ولما انتهيت وضعت المزيج في زجاجة بحرصٍ بالغ وخرجت فلم أجدها...أين ذهبت ؟!

وضعت الدواء الذى أعددته على جانب بعيد وأنا أتعجب، نظرت بعرض الشارع وطوله فلم أجدها.. قدرت أنها ذهبت لتشترى شيئًا من السوبرماركت

لقد اعتدت من الزبائن على هذا، يستغلون الوقت الذى أعدُّ فيه الدواء لشراء احتياجاتهم من المحال القريبة، ولكنى لا أراها في الشارع كله .. عدت إلى الداخل محاولًا العودة إلى قصصى القصيرة ولكن رائحة عروس البحر ظلت ساكنة في خياشيمى.. راقدة فى فكرى.. لم أستطع أن أنساها حتى شممت رائحتها مرة أخرى، ورفعت عينى وابتسمت.. لقد عادت .. ودون أن أنتظر جوابًا سألتها كأنما أكلّم نفسي:

- ذهبتِ لشراء شيءٍ ما أليس كذلك ؟

فوجئت بصوت رقيق يجيبنى:

-لا

وقبل أن تتسع عينى دهشة قالت لى:

- إن من جاءت فى أول مرة كانت أختى التوأم.. عزة .. هى تعانى من حالة عصبية لذا فهى لا تستطيع الكلام

- ودواء الأعصاب؟.

- لها هى

أعطيتها الدواء متفهمًا ..متمنيًا ألا ترحل ولكنها رحلت وعدت لقصصى وحكاية الأختين تطل برأسها من بين السطور، وبالطبع لم أستطع التركيز كثيرًا أو قليلًا.. إنك لاتقابل حوريات البحر كل يوم على كل حال ...

شردت فى سطور الكتاب أتأمل تراصّ الأحرف والنقاط فى صفوف متوازية على الفضاء الأبيض.. حتى انتزعنى من شرودى هبّة ريح عاصفة أثارها اقتحام شاب مفتول العضلات للصيدلية .. شاب يبدو الإجرام على وجهه.. شاب نظر لى بعدوانية غير مبررة :

- أنت الدكتور؟

كأنما ألقى إلى (لكمة) فى أنفى.. هو عنيف فى كلامه كذلك.. أجبته بحذر

- أية خدمات؟

عاد يوجه لى (اللكمات).. الكلمات

- إن أبى صرف دواءً من عندكم منذ قليل ثم..

قاطعته بجزع مرعوب :

- الحاج عبد الرازق

- نعم الحاج عبد الرازق كان طبيعيًا ثم فجأة ...

بفزع قلت :

- ماذا.. هل مات؟!...

- (مات إيه يادكتور.. فال الله ولا فالك)

قالها باشمئزاز شديد كأنما يبصقها في وجهى واستأنف :

- بالعكس أبى فى أحسن حالاته ولكنه ازداد نشاطًا بطريقة ملحوظة..ازداد شبابًا.. والبركة فيك يا دكتور

وأنا جئت لكى أطلب منك زجاجة لى أنا أيضًا

بسرعة الصاروخ فكرت.. إن الاصطدام بهذا (العِجل) الآدمي مغامرة محفوفة بالمهالك، مغامرة كفيلة بتحطيمى تمامًا .. يبدو أننى أعطيت لأبيه (عقارًا ما) جعله أنشط وأقوى ..ربما هو نوع من المنشطات بدلًا من دواء الربو !

المشكلة أنه يريد شيئًا مماثلًا ليجعله أقوى رغم إنه - فى الواقع - لايحتاج ذلك ..لايحتاجه على الإطلاق .. فكيف أخرج من هذا المأزق؟...

- أسرع يا دكتور

قالها متوعدًا فرسمت على وجهى ابتسامة لطيفة كى لا أثير أعصابه.. وهذا كفيل بتحطيم عظام وجهى، أو - على أقل تقدير - تحطيم الصيدلية .. وبحذر شديد منتقيًا كلماتى أجبته :

- للأسف لن يصلح هذا الدواء لك لأنه مخصص لكبار السن فقط

ارتسمت الخيبة على ملامحه وزفر فكاد يحطم زجاج الصيدلية، وتركنى وعلى وجهه نظرة تقول بوضوح «حسنا أيها الصيدلى ..سنلتقى ثانية ولسوف أريك»... وانصرف، عندها فقط بدأت أتنفس ولكن المفاجآت لم تنتهِ بعد..

جمهرة من الناس أحاطوا بالصيدلية من كل جانب وهجموا علىّ يحتضنونى ويقبلونى ويرفعونى فوق أكتافهم ويطوفون بى الشارع كله !

ما الذى يحدث؟ أنا لا أتذكر أنى ترشحت لانتخابات مجلس الشعب !.. ولما هدأوا قليلا قال لى كبيرهم:

- إن جميلك فوق رؤوسنا للأبد يادكتور ومهما طلبت ومهما أعطيناك فلن يوفيك حقك

وكأنما أفهم ما يقصده قلت له بتواضع مزيف :

- لايوجد جميل أو غيره يا (حاج).. هذا واجبى

قال بانفعال عصبى باسم :

- لا يادكتور ..عن أى واجب تتحدث؟.. إن مافعلته مع ابنتنا معجزة بكل المقاييس.. لقد عجز كل الأطباء عن علاجها، حتى أوقفك الله فى طريقها (يالك من ابن حلال !) ..

ثم التقط نفسًا عميقًا ليكمل الخطبة:

-عالجتها بوصفتك السحرية وأعدت لها صوتها بارك الله فيك

«عمن يتحدث هذا الرجل؟!»

- ولولاك لظلّت باقى عمرها خرساء

سألته بتلقائية لادهشة فيها كأننى اعتدت ذلك الموقف كلّ يوم :

- وهل عاد لها صوتها ؟

فأجاب بحماسته التي ترش الكلمات على وجهى وعلى من حوله وعلى الأسفلت بسرعة فائقة :

- نعم يادكتور.. الدواء الذى أعطيته لها أعاد لها صوتها من أول ملعقة ومن حينها ونحن لا نعلم كيف.....

تركته يحكى للهواء حكاية الفتاة الخرساء - يعلم الله وحده من هى - يحكى للجموع المحيطة بنا والتى تستمع فى شغف و(يمصمصون) بشفاههم أن (سبحان الله) وانطلقت امتطى جواد فكرى الذى يعدو بى فوق صحراء النسيان ويركض.. أحمل كومة من التساؤلات بلا إجابة..أبحث عن تلك الخرساء المجهولة حتى وصلت واحة التذكر ..وتذكرتها ..عزة .. الخرساء التى عاد لها صوتها من تركيبة للدواء التى صممتها أنا بنفسي عاد لها صوتها بفضل تركيبة يعلم الله وحده سرها ..تركيبة أعددتها بعد ليلة أرق ولا أذكر محتواها !!.

تسألنى ماذا فعلت بعد ذلك؟

انهالت على العروض من كل مكان.. كل الصيدليات الكبرى طلبتنى للعمل بها وفى خلال خمس سنوات فقط أصبحت أشهر صيدلى فى مصر، وأطلق علىّ لقب صانع المعجزات! ..وأنت ترى سلسلة صيدلياتى التى تحمل اسمى فى كل محافظات مصر .. ماذا ؟ لاتقل لى إنك لم تلحظ الاسم..لم تلحظ التشابه .. أنت بذلك تستفزنى حقًا، لا يا سيدى إنه اسمى أنا .. صيدليات علاء صانع المعجزات التى لم يعرف أحد حتى الآن سرها.. إلا أنت.. أرجو ألا تخبر به أحدًا.... اتفقنا ؟ ..

القصة الثانية

الحب المستحيل

فتحت نهلة نصف عينيها قبل الفجرعلى صوت دقات لا تعرف مصدرها، ومواءٍ حاد مزعج من وراء شرفة الغرفة التى تنام بها والتى تطل على سطوح عمارة مجاورة أقل ارتفاعًا مما جعلها - السطوح- مأوىً للقطط، تنهدت نهلة في تلك المرحلة التي تتوسط النوم واليقظة .. منطقة الشفق، ثم جعلت تمضغ طعامًا لاتدرى مصدره ولكنه طعام لذيذ كالذى نأكله جميعًا في أحلامنا، عادت للنوم مرة أخرى ودخلت غرفتها المفضلة غرفة الأحلام ..

كانت تريد استكمال حلم جميل قطعته تلك الصيحات التى أيقظتها، ولكنها لما عادت لم تجد نفس الحلم للأسف بل وجدت حلمًا آخرمختلف .. غضبت غضبًا شديدًا ولعنت كل القطط، لن تستطيع أن تكمل الحلم وضاعت منها نهايته..ترى كيف كانت نهايته ؟

لابد أنها مثيرة وممتعة ..ربما نهاية تقليدية، ولما لم تجد إجابة تنهدت فى ضيق وأخذت تبحث حتى وجدت حلمًا آخر لم يبد لها مألوفا، ربما كان حلمًا مملًا.. ولكن لابأس لن تخسر شيئًا من التجربة، سرعان ما انسجمت فى الحلم الجديد وتركته يأخذها بعيدًا فى عالم من اللون الأزرق الهادئ الذى تعشقه .. كانت ترتدى فستانًا أبيض مثل (أليس) وتسير في جزيرة

منعزلة هناك فى الركن الآخرمن العالم، لاتوجد بها أي منازل، فقط أشجار جوز الهند ونخيل كثير، وأشجار أخرى مثمرة بفاكهة لاتعرف اسمها ولكنها لذيذة جدًا، ولم يكن بالجزيرة أي أحد سواها بخلاف بعض الطيور الزرقاء التى تحلق من بعيد .. وطيور أخرى مختلفة الأحجام -لاتذكر أنها رأت أيّا منها قبل ذلك- تغرد بصوتٍ جميل والبحر يمتد أمامها واسعًا حتى يعانق الأفق فى أنشودةٍ سحرية للون الجمال .. لون السحر والحب .. لون الخيال .. اللون الأزرق

ذابت نهلة فى روعة المشهد ثم فجأت اجتاحتها وحشة مقبضة فنظرت حولها بقلق وخوف ..لايوجد أحد.. لاترى أحدًا.. وبينما تتجول فى أنحاء الجزيرة بين أشجارها الملتفة الغزيرة الشبيهة بغابةٍ صغيرة .. تتلفت يمينًا ويسارًا وتبحث أمامها وخلفها لعلها ترى أحدًا ..أى أحد.. وفجأة رأته .. وجدته هناك نازلًا من إحدى الأشجار.. لم تكن تعرفه ولا تعتقد أنها رأته من قبل، ولكنها جرت نحوه كأنما تحبُّه منذ أن وُلدت، تأملت قوامه الفارع وذراعيه المفتولتين وصدره الفسيح.. أبحرت بسفائن الشغف فى محيط عينيه العسليتين الواسعتين بامتداد العالم .. ثم وجدت

نفسها بين أحضانه الدافئة.. ودون كلمةٍ منه قالت بكل انفعالها وهى تحتضن وجهه بين كفيها :

- أحبك

زاد البريق فى عينيه وخرج دافئًا مع موجة عذبة من صوته الحنون وهو يهمس فى أذنها :

- أعشقك

نسيت كل مخاوفها ووحدتها وهى تريح رأسها فوق كتفه.. نسيت همومها .. نسيت الجزيرة وجمالها وأشجارها.. نسيت حتى اللون الأزرق، وسبحت فى فيض الإحساس الوردى الناعم .. حلقت روحها بنشوة فى أفق الحنان، رقصت على أنغام همس أشواقه الحنون الذى أسرها فنسيت الكون كله ولم تسمع سواه، أصبح العالم كلّه أنشودة من الحب ..كل الكائنات تعزف سيمفونية موسيقية انسجمت معها وراحت ترقص .. تحتضن كفيه وترقص .. فجأة..اقتحم اللحن نغمة منفرة غريبة الوقع .. صوت منخفض يتعالى بتكرار مستفز .. صوت لعين حاد كأنه شيطان خرج من أعماق جهنم ليطردها من جنة الحب، يتعالى الصوت رويدًا رويدًا حتى بدأت تنسحب من حولها الموجودات ويختفى حبيبها المجهول، يتبخر ماء البحر لتحل محله سجادة زرقاء على أرضية الغرفة ... وتستيقظ من النوم.

بكل ضيق زفرت ومدت يدها للتليفون لتغلق المنبه، لم تكن تريد أن تستيقظ من هذا الحلم الجميل.. حتى الأحلام لا تكتمل وكل هذا بسبب المنبه اللعين! كادت تغلقه وتعود لتلحق بطائرة أحلامها قبل أن تقلع، ولكنها تذكرت أنها يجب أن تنهض بسرعةٍ كى لايفوتها القطار.. حتى تستطيع الوصول مبكرًا إلى محطة الإسكندرية، ثم إلى مكتبتها العامة حيث تعمل، اعتدلت فى ضيقٍ واندفعت خارج الغرفة فى غضب، فقط لتصطدم أصبع قدمها الصغير فى الباب فتلتهب ألمًا، كادت تنفجر من الغيظ وهى تشعر أنها مظلومة ..كم قاسيةٌ هى الحياة!.. ارتدت ملابسها فى عجلة وألقت نظرة سريعة على وجهها المنتفخ من أثر ليلتها المرهقة ونومها المضطرب ..حدقت فى المرآة وتحسرت.. إنها جميلة..تعرف أنها جميلة .. تشعر أنها جميلة .. قالوا عنها إنها جميلة ..تملك عينين بنيتين رائعتين، وبشرة خمرية صافية، وفم صغير شفتاه مضمومتان فى حلاوة، وشعر ناعم كستنائي اللون تحسدها عليه الفتيات .. فلماذا إذن؟ لماذا لايلتفت إليها أحد.. لماذا؟ هبطت من المنزل جريًا وهى تكمل ارتداء فردة حذائها على السلم حتى كادت تقع على وجهها

ألقت بنفسها لاهثة الأنفاس فى أول أوتوبيس في اتجاه محطة القطار ثم وجدت نفسها داخل القطار تجلس على أحد المقاعد يواجهها فى العربة المقابلة مفتوحة الباب وجهٌ تعرفه جيدًا ..وجه يحمل صاحبه عينين عسليتين وقوامًا فارعًا وذراعين قويتين كانتا تحيطان بها منذ ساعة فى جزيرة فى عرض البحر !

إنه هو ..هو الذى رأته فى حلمها، تبسمت له فابتسم ..كادت تنهض لتذهب إليه ولكنها أحجمت وتسمرت مكانها.. إنه دوره.. لقد فتحت له الباب ويجب عليه أن ياتى ليطرقه.. يجب أن يأتي إليها بقدميه .. بحبه وحنانه، يجب أن يحتويها فيزيل خوفها من العالم، تبسمت مرة أخرى وهى تحدق فى كتفه .. تتذكر إنها كانت تضع رأسها على هذا الكتف منذ قليل !..

جاوب بسمتها ببسمةٍ أكبر واستمر سيل البسمات المتبادل بينهما، لم يقطعه سوى صوت محصِّل التذاكر :

«التذاكر ياحضرات»

وقف المحصل يعترض مجال رؤيته فمال برأسه يمينًا ثم رفع يده ليحييها خفية، ارتبكت لجرأته ولم تدر ماذا تفعل؟.. بينما ما زال يشير لها بيده بإصرار .. لقد ترك مرحلة الخفاء وأخذ يلوح لها بامتداد ذراعه أمام الناس ! ..

«يالك من مجنون.. هل تظنُّ أنّنى لا أراك؟.. كف أيها الأحمق قبل أن نفتضح !..»

إلا أنه لم يتوقف.. وأمام إصراره اضطُرت أن ترفع إصبعًا واحدًا خجِلًا، وما كادت تفعل حتى فاجأها بما كانت تنتظره، نهض من مكانه وجاء ناحيتها فارتبكت ..فرحت.. وانتفضت خجلًا من اللحظة القادمة .. زاد خفقان قلبها حين اقترب وخفضت رأسها للأرض يكاد يغشي عليها، ولما صار بإزائها تمامًا سمعت همس الصوت الحنون الذى داعب أذنيها في حلمها، وأفاض على قلبها سيلا من السعادة صوت طاف بروحها عوالم الحب في مملكته الزرقاء التي حفظت كل ركنٍ فيها ..هو الآن يحدثها بنفس النبرات ..يعدها بنفس الحنان، يقول في شوقٍ حبيب :

- صباح الخير

وانطلقت الرصاصة من خلفها فانفجرت فى أذنيها حتى كاد يصيبها الصمم :

- صباح الخير

وجلس ..فى المقعد التالى لها جلس...خلفها جلس ..مع واحدة أخرى جلس !

إذن فهو لم يكن يقصدها ببسماته وإشارته، لم يأتِ من أجلها بل من أجل أخرى تجلس خلفها تمامًا، لم يقل صباح الخير لها ..صوته الحنون لم يكن من أجلها، أرادت أن تلقى نفسها من القطارفقد كرهت القطار وكرهته وكرهت نفسها، لماذا يحدث لها هذا دائما.. لماذا .. ؟ كل شئ جميل ينتهى ..لايكتمل..

إنها جميلة..تعرف أنها جميلة .. تشعر أنها جميلة قالوا عنها إنها جميلة ..تملك عينين بنيتين رائعتين ، وبشرة خمرية صافية، وفم صغير شفتاه مضمومتان فى حلاوة، وشعر ناعم كستنائي اللون تحسدها عليه الفتيات فلماذا إذن؟ لماذا لايلتفت إليها أحد.. لماذا ..لماذا ؟.....

ورنّ المُنبه مرة أخرى..

*****

القصة الثالثة

لوجْهِ الله

الشمس أوشكت على المغيب وانعكس شعاعها المتوهج فوق الكائنات، اقتربت لحظة الغروب التى تخبر النهار كى يستعد للمبيت لكى يلملم ضياءه من فوق الأرض ويسحبه من ذرات الهواء تمهيدًا للرحيل في رحلة نوم تمتد ليلة واحدة في مخدعه خلف العالم .. تتناثر مراكب الصيد فوق صفحة الماء جزرًا طافية .. جزر خشبية متباينة الأحجام بعضها كبير يحمل عشر صيادين يتبادلون النكات ويمتصون دخان السجائر في شراهة وجشع قبل اقتسام نصيب اليوم من الأسماك تمهيدًا لعودتهم لمنازلهم، بعض المراكب لا تحمل سوى راكبين صيادًا ومساعده والبعض الآخر صغير مثل مركب هذا الصياد البائس..اسمه صابر.. له من العمر خمس وأربعون عامًا لكنك حينما تراه تظنه فوق التسعين، تحدّب ظهره وتقوست ذراعاه، حتى الساقين تقوستا وتيبست فيهما دماء الحياة.. أما شعره فقد جفّ لأنه نسى أن يمشطه منذ زمن بعيد فتجعد وتقشف مثلما تقشف صاحبه .. صابر .. يبدو أن له حظ كبير من اسمه، له نظرة انطبع الحزن فيها وامتزج بلهفة لشئ ما ..شئ لايراه، بأمل لشئ لا يعرفه ..مركبه لا يحمل غيره فلم يكن له من أحد يعاونه واعتاد أن يعمل وحده، لم يكن صابر يملك من الدنيا غير كوخٍ حقير بيت خشبى يلملم شتاته مع زوجته وابنه الوحيد، ولم يكن كوخه بيتًا بالمعنى المعروف، فهو لم يكن يحوى

من الأثاث غير (طبلية) وحصيرة وبعض القطع الخشبية لملمها من بقايا حطام سفينةٍ وجده متناثرًا على الشاطئ، صنع منها ما يشبه السرير يأوى إليه ليلًا إذا ما دعاه هاتف النعاس و(كنبة) صغيرة ينام عليها ابنه وبعض القطع الأخرى يستعملونها للجلوس عليها إذا ما التفوا حول الطبلية لتناول الطعام .. نموذج للبؤس يصلح أن يتخذ مثالا للمُهمّشين .. له ولدٌ صغير لا يقوى على العمل ويخاف عليه من مشاقه .. من لفح الشمس وريح البحر، من ثقل الشبكة كى لا تؤلم كفيه الصغيرين ومن خبث الصيادين وألاعيبهم التى لا تنتهى، يريد له أن يتعلم ليصبح شيئًا ذا قيمةٍ فى هذه الحياة.. شيئًا غير أبيه .. وجهل أبيه ..وفقر أبيه ..

«ألن تعود إلى البيت ياعم صابر؟!»

نطقها أحد الصيادين برنة خبثٍ ساخر أعقبتها ضحكات هازئة ماجنة، هو يعلم أنه لم يصطد منذ الصباح سمكةً واحدة لذا نظر إليه فى انكسار ولم يرد، وعاد يحدق فى وجه الماء مرة أخرى تراوده فكرة شيطانية جذابة لعلاج كل مشكلاته، يفكر أن يزجّ بنفسه في هذه اللّجة فيتخلص من الحياة وهمومها .. ولكنّ قلبه العامر بالإيمان انتفض فاستغفر الله واستعاذ به من الرجيم ووسواسه، وعاد يمزق الدقائق بأسنانه ترقبًا وخشية .. ترقبًا للانفراج وخشية ألا يُجعل له هذا اليوم

رزقًا فيعود للمنزل خاوى الوفاض ، انعكس شعاع الشمس المحتضرعلى سطح الماء ثم ضرب فى عينيه فزفر بسأم، غرق فى بحر الهموم.. ماذا يفعل؟ ..لم يصطد شيئًا منذ بزوغ الفجر فكيف يطعم أسرته الصغيرة ؟ لايوجد فى أسماله البالية ما تستطيع أن تسميه جيبًا بل ثقب مجوف عميق لم يتذكر أنه ضرب يده بداخله وأخرجت عملة معدنية إلا فيما ندر .. قلّب عينيه فوق سطح الماء وعلى طرف شبكته الممزقة، وهو يدعو الله أن يمنّ عليه.. صوت طفله يرنُّ فى أذنيه.

« أريد سمسمية يا أبى»

لحظات ثقيلة مرت .. بدأ الغبش يختلط بآخر شعاع للشمس وجاء المساء يلون بفرشاته الأفق باللون الوردى، وبدأت معه قطع الماس تلمع فى سماء الشاطئ المهجور الذى دبت فيه وحوش الظلام بعدما غادره كل الصيادين إلى منازلهم، وبقى وحده كتمثال نُسي هنالك فى خرائب قديمة لمعبد مهجور .. جزء من لوحة الصمت فجأة ارتج الماء بعنف، سحب الشبكة فوجد سمكة تضطرب! سمكة كبيرة تضطرب ..وعد بالشبع على مائدة الطعام ووعد ببعض المال .. بعض القطع المعدنية إذا ما باعها .. رزق جديد يعده أن يحضر لابنه سمسمية، جذبها بلهفة السائر فى الصحراء حين يجد ماءً ولأول مرة منذ زمن بعيد تنجح البسمة فى معانقة شفتيه

«اتركنى أرجوك»

«ياالله.. ما هذا الذى أسمعه؟ أيمكن أن يكون خلو الشاطئ جعلنى أهذى؟»

لم يكن صابر يتعاطى تلك الأشياء التى يشربها الصيادون وتجعلهم يضحكون بلا سبب ..لذا فقد ساورته الظنون فاعتقد أنها سمكة ممسوسة ..

«أتراها جنية الماء التي حكوا لى عنها قديما حين كنت طفلا ؟»

حدق فيها بهلع ..لولا الخوف لقبضها بيده وألقاها فى الماء ..كانت ترتجف حيث ألقاها فى قاع المركب ثم انطلق الصوت من جديد ليبدد كل سحب الظن فى داخله :

« أتركنى أرجوك»

إذن فهى السمكة التي تتكلم !! كاد يقفز فى الماء لولا أنه تذكر أنه بمفرده ..كل الصيادين رحلوا .. وحيد فى وسط البحر والظلام , من الممكن أن تجذبه إحدى جنيات الماء فيغرق قبل أن يصل للشاطئ

«أتركنى أرجوك»

بحلقه المتشقق جفافًا قال لها :

- من أنتِ؟!

تملكه العجب وهو يسمعها تقول بحزن:

-أنا مجرد سمكة بائسة !

زاد عجبه من نفسه لأنه يحاورها :

-هل هناك سمك يتكلم؟!

فأجابته بحروف ضارعة يملؤها الأسى :

- لقد دعوت الله أن يجعلنى أنطق لأوصل لك صوتى فاستجاب لى

قال لها وذعره يزداد وبصوت متهدج من الخوف :

- وماذا تريدين؟

أجابه الصوت الضعيف المتقطع الذى يزداد خفوتًا:

- اتركنى أرحل لوجه الله، فلقد خرجت من الصباح لكى أحضر لابنى ماطلبه من القشريات البحرية.. إن لى ابنًا وحيدًا صغيرًا أحبه، ولا أخرجه معى كى يصطاد طعام اليوم من الأسماك الصغيرة .. أخاف عليه مخاطر البحر وتقلبات الأمواج وخبث الأسماك الكبيرة ..اتركنى أرجوك فإن ابنى ليس له أحد بعد الله غيرى استبدت به الحيرة وهو يسبح فى بحر من التردد لا شاطئ له «هل أتركها وأعود بلا شى ؟... وإذا تركتها فمن أين أطعم أسرتي؟

هل أدعها ترحل وأنا الذى ماكدت أظفر بها بعد أن فقدت الأمل فى الصيد؟ .. أم أعمى عيني وقلبي عن توسلاتها، وماذا عن ابنها الصغير الذى ينتظرها ؟ ..ولكن ماذا عن ابنى أنا؟»...

«أريد سمسمية يا أبى»

انقضى اليوم بلا صيدٍ بين الملل وفَقد الأمل وعندما وجد صيدًا هاهو يتردد أمامه بين شفقة ورجاء ... بين

طمع ورحمة .. بين صوتها الذى مزق ضميره وصوت ابنه الذى مزق قلبه فكيف يصنع ؟

اقترب صابر منها بحذر وامسكها فارتعد جسده كانما أمسك سلك الكهرباء، وبكل سرعةٍ ألقاها فى الماء وأمسك مجدافيه وجدف بكل قوة.. يضرب الماء سريعًا كأنه يهرب من عدو خفى لايراه, لملم أشياءه وانطلق عدوًا نحو كوخه الخشبى ..

« هل مافعلته صحيح ..أم أننى تعجلت فى الإفراج عن هذه السمكة ؟ هل أنقذت حياتها من أجل ابنها أم أننى أضعت رزق اليوم؟ ..»

كان مضطربًا يشعر بالضيق لأنه لم يظفر بشيء .. إلا أنه كان داخله يشعر بسعادة غامرة لأنه صنع معروفًا لكائن ضعيف .. وقبل أن يدق الباب اصطدمت يده بجيبه فوجد شيئًا صلبًا !! لم يذكر أنه وضع شيئًا في جيبه منذ أسبوع .. تحسسه بوجل وأخرج القطعة الصلبة ولدهشته وجدها قطعة سمسمية !

«أريد سمسمية يا أبى»

«لقد خرجت من الصباح لكى أحضر لابنى ماطلبه من القشريات البحرية»

عندما دق الباب كانت امرأته تقف وراء الباب يأكلها القلق ..وقبل أن تسأله عن شيءٍ

أخبرها أنه لن يعود إلى عمل البحر مجددًا ..سيعمل نجارًا!

ومازالت حتى الآن لاتعرف السبب..

القصة الرابعة

إنِّى راحلة !!

بدأت أختنق.. أشعر بثقل هائل يجثم فوقى يكبل حركتى ويثقل ظهرى .. يجعل خطواتى أبطأ ..لا أريد شيئًا على الإطلاق فقد افتقدت الشغف لكل شيء .. للحياة ذاتها.. الملل عنكبوت ضخم نصب شبكته اللزجة التي أوقعت بى في حبالها، ولما سقطت جاء يمتصنى ببطء ممل ..مؤلم .. يمتص ذاكرتى فلا أجد ما أتعلل به وإن وجدت فلا أجد في الذكرى أي متعة إلا الملل .. يمتص هدوئي فأثور لأى سبب .. يمتص صبرى فلا أطيق انتظارًا لأى شيء ..يمتص اللهفة في أعماقي فلا اشتاق لشىء ولا أريده .. يمتص حتى الرغبة فتتساوى عندى كل اللحظات, ويتمدد العنكبوت وتزداد شبكته شرنقة تخنق أنفاسي وتلتهم ساعات النهار ببطء ..لن أمكث هنا طويلًا لقد سأمت إهمالك لى وانصرافك عنى، وتركى أتحسس كل جدران البيت وحدةً ولا أجد ما أفعله, سئمت شكل الأثاث فى منزلك وهذه الكراسي الثابتة فى مكانها منذ زمن وكأنها تجثم فوق روحى، هذه المكتبة بأوراقها المتكومة وكتبها المتراصة في غير نظام والتى تقضى أمامها ساعات طويلة تداعبها بحنان أفتقر إليه.. ثم هذا التلفاز وبرامجه المملة المكررة، مباريات الكرة التى تتابعها بشغف شديد وتفزعنى بصراخك فتوقظنى أحيانا من النوم .. تقهقه ضاحكًا عندما تتحدث مع أحد أصدقائك فى الهاتف

لقد سئمت إهمالك الدائم لى وخاصةً بعد أن أتيت بها إلى البيت، كنت فيما مضى لى وحدى عهدتك طفلًا تكوّم المكعبات أمامك وتركِّبها فتصمم أشكالا ثم تفكّها، وتبنى بيوتًا ثم تهدمها.. ثم تملّ ذلك كله فتمسك ورقة وقلمًا وترسم.. ثم عهدتك شابًا تتنقل بين النادى والسينما وساعات المذاكرة والاتصالات الهاتفية مع زميلاتك، وكنت أضحك في نفسى عندما تحمل الهاتف للحجرة وتغلق الباب ظنًا منك أنى لا أسمعك.. كم كنت ساذجًا ؟! ..لم تعلم أنى أسمع كل همساتك, مجادلاتك وفلسفتك ..آهاتك وضحكاتك وحتى أحلامك المستقبلية, حتى عندما كنت تقرأ فى كتاب كنت تجلس أمامى أشاهد تفاصيل وجهك وتقطيبتك الحبيبة واستنشق معك دخان سيجارتك ولما كنت تكتب كنت أتبع حركة قلمك، وأراقبك حين تكور الأوراق وترميها فى سلة المهملات, كنت لى وحدى والآن انشغلت عنى كلية ولم تعد تهتم بى على الإطلاق .. حتى القراءة هجرتها ولم تعد تجلس للقراءة أمامى مثل الأيام الخوالى، أذكر حين كنت أستمتع معك بكل الروايات الرائعة التى كنت تقرأها جهرًا بصوتك الحنون، خاصة عندما تضحك لموقف فى أحد فصول الرواية كنت أضحك معك ..ولكنى أضحك في سرى كيلا أشغلك عن القراءة .. كنت تحبنى

وتقرأ لى.. عشت معك أحلى سنوات العمر، رأيت العالم كله من نافذة قراءاتك سعيدة كنت أنطلق بعيدًا أتذكر حينما كنت لى, أما الآن فقد اتخذت قرارى ولن أتراجع فيه أبدًا .. سأبحث عن بيت آخر لأقضى فيه ماتبقى من عمرى .. نعم.. أدرك قسوة القرار عليك وأثره البالغ فلا تغضب ولكن هذا ما أردته أنت ولم أعد أحتمل, أنا لن أبقى هنا لكى أشاهدك تنظر إليها بكل هذا الحب وتداعبها أمامى بلا خجل.. تأكل معها وتشاهدان الأفلام سويًا.. تشترى لها (الآيس كريم) من الخارج قبل عودتك, إنك لا تهتم إلابها هى فقط ولا تسأل عنى أو عن احتياجاتى طوال اليوم إلامرة واحدة أو مرتين فقط، وأحيانا لا تلتفت إلىّ أبدًا .. إنك حتى لم تفكر أن تصطحبنى معكما حين خرجتما للنزهة فى عطلة الأسبوع الماضى.

لقد كبرت فى السن ولم أعد كما سبق، وظهرى بدأ يؤلمنى منذ فترة ليست بالقريبة وأنت تعلم هذا ولكنك تتعمد تجاهله .. الوداع .. ورجاءً لاتحزن من أجل ما مضى فلن يفيد الحزن شيئًا ولاتندم على مافات لأنه لن

يعود ولا تبحث عنى فلن تجدنى ..لاتبحث عنى فلن أرجع ..لاتبحث عنى لستجدينى وتذرف الدموع مثلما كنت تفعل صغيرًا .. لن أعود ..إنى راحلة

****

- سلوى ...هل رأيت السلحفاة ؟.. أنا لا أجدها

- ربما تكون قد ماتت

- هل تعتقدى؟ ... ذكرينى كى أشترى واحدة أخرى غدًا ! ..

*****

القصة الخامسة

تكنولوجيا

«يومٌ ممل»

هكذا قال لنفسه الأستاذ مراد مدرس الفلسفة الذى ناهز الرابعة والخمسين من عمره ..والذى يعمل بإحدي المدارس الثانوية القريبة من منزله, واليوم شديد الحر شديد الوطء مختنق الأنفاس مثل معظم أيام أواخر إبريل، الطلبة هجروا المدرسة تمامًا ولم يعد يعمل أو يشرح شيئا لاحصص أساسية ولا احتياطية، لم يعد به شغف إلا لقراءة الصحيفة ..العادة التى لم يتركها منذ كان طالبًا فى الثانوية.. يسمع زملاءه المدرسين الشباب يتحدثون ويثرثرون فى هرطقة تكنولوجية لايفهمها ولا يستسيغها، فتلفظها أذناه قبل أن تصل إلى عقله ..لم يعتد أبدًا ولن يفهم مطلقًا كيف يستبدل الطالب القراءة من كتابه ليقرأ على ما يسمونه (التابلت) ..أى عبث شيطانى هذا ؟ أى تعليم يرجى من هذا الهُراء؟! وعبثًا حاول زملاؤه والمدير وحتى موجه الفلسفة أن يقنعوه بأن الزمن تغير وأن التابلت - شأنه شأن كل الوسائل التكنولوجية الحديثة - قد أصبح ضرورة حياتية لمواكبة العصر، وما كادوا يفعلون- وليتهم مافعلوا - حتى انفجر فى وجوههم غاضبًا رافضًا مجرد مناقشة الفكرة ثم يتركهم وينصرف إلى أكثر الأماكن قربًا من قلبه فى المدرسة كلها .. إلى المكتبة حيث المئات من الكتب التى تكفل له ساعات من المتعة

لايفسدها إلا همهمات الأستاذة (نشوى) أمين المكتبة حين تتحدث مع خطيبها على الهاتف لمدة تتجاوز الساعتين..لايدرى ماذا يقولون طوال هذه المدة يوميًا! المضحك فى الأمر أنها تظن نفسها فى محادثة هامسة ولاتدرى أن كل حديثها يضرب أذنيه ويخترق عقله فيوقف تسلسل الأفكار إليه ويعكر صفوها .. أو حينما تتذكر مدرسات المدرسة- فجأة - أن المكتبة من الممكن تحويلها إلى نادى نسائي للمناقشة الحرة حيث تنبرى إحداهن لنقد مدير المدرسة وكيف أنه يجامل هذا على حساب ذاك أو هذه على حساب تلك، ثم تجاوبها الأخرى نقدًا لمسئول لجنة الاحتياط وكيف أنه يضطهدها بلا سبب ويعطيها من الحصص الاحتياطية أكثر من زملاءها خاصة زميلتها (س) لا لشئ إلا أنها- س- تتحدث معه بميوعة ودلال .. ولا تنسي بالطبع أن تزرع الكثير من الغمز واللمز والكلمات ذات الإيحاء لتؤيد رواية مؤداها وجود علاقة مريبة بين مسئول الاحتياط وبين (س) ..وتنسي نفسها وهى تسهب فى ذم زميلتها والطعن فى تصرفاتها وتتعالى حدة صوتها حتى تلكزها من بجوارها لتنبهها أن (س) حضرت فتنقلب ملامحها بسرعة فائقة وتنهض لاستقبالها والابتسامة تملأ وجهها مع العبارة الخالدة

«كيف أنت ياحبيبتى؟» بل واحتضانها أيضًا!

وأمام حضورها يضطر الجميع لتغيير مسار الحوار لتنبرى ثالثة بنقد الحكومة لسوء أحوال المعلمين وتدنى العلاوات وتأخر المكافآت, ورابعة تنقد سياسة الدولة وخامسة تلعن جشع التجار وسابعة وثامنة .. ويرتفع الطنين فى أذنيه فيقرر أن يترك هذا (السيرك) لأى مكان آخر .. بالطبع لايجرؤ على أن يطلب منهن المغادرة.. فليرحل هوإذن، أما عن متعة القراءة ..فأصبحت ذكرى..

ولكن أين يذهب ؟ هذه مشكلته اليومية ..هل يجالس زملاءه من كبار المعلمين الناقمين على كل شئ؟.. هل يجلس معهم وهم الذين يرون أنهم أضاعوا العمر سدىً وشتتوا حياتهم فى متاهات الوظيفة التى لاتسمن ولا تغنى من جوع؟ .. لم يكن فى حياته ماديًا وكان يحب عمله بحق، يرى أن المعلم حامل لمشعل النور.. أفلاطون العصر ..وأن واجبه أن يعلم الناس كيف يفكرون ..هو معلم.. نبى.. فهل يوجد نبى يريد مقابلا لرسالته ؟! .. وكلما أراد أن يصارح زملاءه بفكره نظروا له بسخرية وقالوا :

- إنك تتفلسف فى كل شيء.. ولكننا - أحيانا - نريد منك أن تعيش معنا على أرض الواقع !!

ولأول مرة فى حياته يشعر بالغربة.. يطالبونه أن يكف عن الفلسفة وهو الذى عاش عمره كله يتنفس بها !..

عن أى واقع يتحدثون ؟ إنّ الفلاسفة هم الذين يغيرون الواقع بل ويصنعونه أيضًا، فكيف يكفُّ عن الفلسفة ..عن الفكر..عن الحياة؟!.. لقد أنفق عمره كله في دراسة الفلسفة باللغة العربية وترجم بعض كتبها بالإنجليزية أيضًا فكيف يستطيع التفكير أو الحياة بدونها؟.. إنها تسليته الوحيدة وأنيسه فى وحدته خاصة وأنه لم يتزوج ويعيش بمفرده... حتى إذا ما استحال الجدل بينهم لمعركة كلامية ترك لهم المجلس كله وانصرف إلى وحدته ..أما لو فكر فى أن يجالس المدرسين الشباب فجلّ حديثهم عن الإنترنت بمواقعه اللامتناهية، عن التليفون المحمول - الذى يرفض شراءه - وعن اللعين المدعو بالتابلت والذى سحب البساط من عشقه الأول.. الكتاب الورقى.. ناهيك بالطبع عما يسمى بالفيس بوك ..وما يدعى بتويتر .. وعشرات الكائنات الشيطانية القادمة من عالم الإنترنت والتكنولوجيا الإلكترونية السخيفة، والتى تزيد إحساسه بالغربة فيكاد رأسه ينفجر .. وأخيرًا ..اتجه لمكتب المدير بعدما اتخذ قراره.....

*****

مرت خمسة أشهر على هذا اليوم.. يتذكر الأستاذ مراد أنه بعد أن تقدم بطلب إجازة مرضية وتمت الموافقة

عليها، عكف فى منزله لا يفعل شيئًا إلا القراءة وتصفح الجرائد التى يشتريها له (صبى) القهوة المجاورة مقابل مبلغًا من المال زيادة على ثمنها .. استيقظ من نومه وأخذ يبحث بشغف على المنضدة المجاورة حتى وجد التابلت الذى اشتراه مؤخرًا !! فتح البريد الإليكتروني ليجد رسالة من صديقه الإنجليزي الذى تعرف عليه عن طريق حسابه على تويتر، يطلب رأيه فى مناقشة كتابه الجديد (قراءات فى فلسفة الرواقيين) وكم استمتع بالحديث معه وتعرف عن طريقه أيضًا بأساتذة جدد لهم نفس الاهتمامات .

اليوم قرر أن ينشأ له حسابًا على فيس بوك ..وكان أول ما طالعه فيديو عن مظاهرة للمعلمين يطالبون فيها بزيادة مرتباتهم ... تفاعل مع المنشور.. ثم بحذر.. لامس كلمة مشاركة

*****

القصة السادسة

شاهد على (العصر)

الصيف مرة أخرى.. وهج الشمس الذى ينصبُّ فوق الرؤوس فتلتمع بألف بريق ويجعل الشمس تولد شموسًا فى عيون الناس.. شلال من حرارة كفوهة بركان ينصب من السماء على الأرض ويكاد يذيب أسفلت الطريق فتلتصق به السيارات وأحذية المارة ..هل ترى هذا الرجل الذى التصق حذاؤه منذ قليل بالأسفلت؟ ..إن البلدية تعيد رصف الطريق وكأنها لم تجد وقتًا أو مناخًا أنسب من هذا الجحيم لتقوم بهذا العمل الغريب!! .. وما هى إلا أيام ويبدأ الحفر من جديد بحثًا عن سلك كهرباء منقطع فى العمق، أو ماسورة مياه مكسورة هناك أو سلك التليفون الذى نسوا - بالصدفة- أن يوصلوه.. وهكذا تظهر الحفر القبيحة فتشوه شكل الشارع إلى الأبد.. المحال فى هذا الشارع كثيرة جدًا ولكنى أحفظها جميعًا عن ظهر قلب بحكم عملى، هل ترى هذا الرجل على الناصية ؟ اسمه (عم شعبان) وأنصحك ألاتحاول أن تناديه بدون كلمة (عم) هذه فلن يجيبك .. بائع فول محترف هو لو كنت تريد فولًا للإفطار، وفول شعبان لذيذ بشهادة كل من اشترى منه - أنا شخصيًا لم أجرب أن آكل من عنده قبل ذلك - يجهز أطباق الفول باحترافية حقيقية، يهز المغرفة فى يده ويطوحها لعمق القدرة فتضرب ضربة أو اثنتين ويخرجها ممتلئة بحبات الفول السابحة في مائه

ثم يمزجه ببعض الزيت، ثم رشّة من ملح قليل فالملح الكثير - كما سمعته يقول - يفسد الطعم كما يضر الصحة، ويخرج بصلة أو اثنتين يشققهما كيفما اتفق.. وفوقها رشة من زجاجة خل اسوَدّ إطارها الخارجي .. وهنا يأتى دور الشطة.. الكثير منها.. وكأن الشطة غير ضارة بالصحة! ...و....

- «بالهنا والشفا يا أستاذ» .

هكذا ليلتفت إلى زبون آخر ويستمر فى عمله الدؤوب منذ السابعة صباحًا حتى تحمى الشمس فيفرد شمسية مهترئة كثرت ثقوبها حتى لا تكاد تقيه أشعة الشمس، ولكنها دائمًا هناك كما لو كانت ذكرى يرفض نسيانها ..ولعلها تذكره بأيام شبابه حينما كان عامل انقاذ بأحد شواطئ الإسكندرية كما يحكى عن نفسه فى لحظات الصفو ..المحل خلفه ليس محلاً بالمعنى المفهوم ولكنه استوديو كما لابد أنك لاحظت ماذا.. لم تلحظ أنه استوديو؟! ..لابد أن بعينيك شيئًا أو ربما هي أشعة الشمس أصابتك ببعض (الزغللة) فلم تر ستويو (حليم) .. أشهر مصور في المنطقة ..لايوجد عروسان لم يلتقطا صورالزفاف عند الأستاذ حليم.. ستوديو ضيق المدخل وربما لذلك لم تلحظه عندما حدثتك عنه.. واجهته الزجاجية تكتظ بصور الزفاف ومئات البدل السوداء والفساتين البيضاء والوجوه الباسمة

لابد أن معظمهم صار أبًا وربما جدًا.. صور لامعة حديثة وأخرى مصفرة لفحتها الشمس بتوالى الأيام والشهور والأعوام كأنها قصة الحياة ..يجلس الأستاذ حليم نهارًا بلا عمل تقريبًا فلا يوجد من يدخل الأستوديو نهارًا إلا طالب جاء يلتقط صورًا من أجل كارنية للكلية، أو لاستمارة الثانوية العامة وهذه أمور موسمية - كما تعلم- أما لحظات مجد الأستاذ حليم فكانت عند توقف سيارات (الزفّة) أمام الأستوديو.. كان يعشق العمل والزحام ويحافظ على الأستوديو نظيفًا عطرًا باستمرار؛ لذلك لك أن تتخيل إحساسه وهو جالس نهارًا ..لابد أنها أسوا ساعات اليوم بالنسبة له .. بجواره (فتاة ما) تعمل كسكرتيرة له ومصورة أحيانًا وتنظم دخول الزبائن لغرفة التصوير ولكنه - كمحترف يعشق مهنته - كان يحب أن يصور بنفسه لكى يضيف على الصورة لمحاته الفنية الخاصة.. وضع صاحب الصورة ووقفته هو كمصور..ضبط زاوية الكاميرا وعشرات التفاصيل الأخرى ..والأستاذ حليم مفنٌ يحب مهنته ويمارسها كفنٍ ..لذا فلم يكن ليسمح لغيره أن يشاركه متعته هذه - إلا تحت ضغط العمل الشديد - ولعل ذلك يفسر لك تغييره للموظفات عنده باستمرار.. لم تكن الواحدة منهن تكمل الثلاثة أشهر حتى تفاجئ بغيرها وهكذا ..تسليته الوحيدة في تصفح الجريدة فبالإضافة

لهواية التصوير فإن الأستاذ حليم قارئٌ نهم.. يتصفح الجريدة كلمةً كلمة وسطرًا سطرًا كأنما يريد أن يعتصرها ويشرب الحبر المتقطر منها ثم يتسلى بحل الكلمات المتقاطعة, على لأنه لا يختلط بأصحاب المحلات الأخرى المجاورة فهو بطبيعته انطوائى يحب عمله فقط، وبرغم المحاولات المستمرة من الحاج (عبد الرحمن) للتقرب منه عن طريق أكواب الشاي التي يرسلها له مع (حمادة) صبى المقهى إلا أن ذلك لم يمزق الستار السميك المتحفظ الذى يضعه الأستاذ حليم حوله بإصراره على دفع ثمن الشاي دائمًا مما يغضب الحاج عبدالرحمن منه ..أراك تتساءل عن الحاج عبدالرحمن ..ماذا؟ ..ألم أحدثك عنه؟ ..إنه صاحب محل الجزارة المقابل للأستوديو مباشرةً.. رجل طيب هو يحب اللحم بكل أنواعه, ولكى لاتبتسم في خبث فأنا أقصد اللحم المذبوح الذى يؤكل وليس أى لحم آخر!! والحاج عبد الرحمن رجل اجتماعى جدًا ..جريء جدًا ..مقتحم جدًا ..يقتحم حياة أى أحد فجأة وبدون استئذان, مستعد للدخول في أى معركة بلامقدمات.. وبرغم أنه في شارع راقٍ بوسط المدينة إلا أنه يذكرك دائمًا (فتوات) حوارى الأحياء الشعبية بمصر القديمة ، فلو ركبت آلة الزمن وعدت للخلف سبعين عامًا لكان مثالًا حيًا لشخصية المعلم عباس - أخو السفيرة عزيزة -

ولكنه يمتاز عنه بصفة (جدعنة) ابن البلد الفطرية تجاه أى فرد من أفراد الشارع - خاصة لو كانت أنثى- فهو يشعر أنه مسئول عن حماية الجميع....

وبجوار محل الحاج عبدالرحمن تجد قهوة (السكرية) كما تراها شبه خالية نهارًا لا يرتادها إلا بعض أرباب المعاشات للعب الطاولة، أو بعض الصبية المتهربين من مدارسهم يدخنون الشيشة ..أما ليلًا فإن حمادة عامل القهوة يتألق وهو لايكف عن الحركة وتوزيع أكواب الشاي على الجالسين.. مع بعض العبارات التي أصبحت ملتصقة بلسانه:

«أربعة شاى مظبوط وواحد زيادة»

لها حياة أخرى تمامًا تختلف عما تراه أمامك ..وكم شهدت تلك القهوة العديد من المشاجرات خاصة عند مشاهدة مباريات الأهلي والزمالك، ويحدث الاحتكاك بين جمهور كل فريق ثم تدخل الشرطة - القسم في أول الشارع بالمناسبة - ولكن برغم كل شيء تبقى قهوة السكرية علامة بارزة في هذا الشارع ..

مقابل القهوة وملاصقًا لستوديو حليم تجد سعيد العصّار.. و(العصّار) هذا ليست اسمًا ولكنها صفة لأنه صاحب (عصّارة القصب) الكبرى فى منتصف الشارع.. بائع مرطبات منذ أن كان طفلًا ..كان يعمل فى هذا المحل وبعدما كبر اشتراه من ورثة صاحبه بعد وفاته

وتزوج ابنته .. وسعيد معروفٌ منذ طفولته بسعيد العصار ولم يكن يعيبه سوى أنه رجل (بصباص) لا يكتفى بمجرد النظر لأى أنثى ولكنه يعتصر جسدها بعينيه.. ربما كان هذا سببًا ثانيًا لإطلاق اسم العصار عليه، فبعدما تشرب الزبونة كوب العصير يستلم المال منها وعيناه مغروزتان بجسدها قائلًا بوقاحة فجة :

«خلّيها علينا ياعسل»

غير أن بعض (العسل) كان يعجبهن حديثه الذى لايخلو من غزل مرح فتبتسم راغمة وتنصرف، أوتطلق ضحكة مكتومة كأنها خرجت للتو من بئر عميق ..أو ضحكة ماجنة فيها الكثير من الدلال و(المرقعة) مما يجعله يصيح عاليًا وقد أثارت أعصابه :

«أحبك يا أبيض»

غير أن سعيد العصار دائمًا ما يتحاشى أن يراه الحاج عبدالرحمن.. فهو لن يستطيع الوقوف أمام غضبة عبدالرحمن الجزار، وربما كانت سمعته السيئة جدًا سببًا آخر لقلة مرتادى العصارة من الإناث فمعظم مرتاديها من الرجال كما تلاحظ, فهو لم يترك أنثى لم يلق على مسامعها بعبارات الغزل الوقحة ناسيًا سنّه وأبناءه الخمسة ومعرضًا نفسه لكل أنواع السباب والإهانة .. استمع كلّ ذلك واستمتع به وأضحك كثيرًا مما أراه وما أسمعه.. كم عرفت من أسرار وكم سمعت من خبايا

ولازلت أمين سرِّ الشارع بأكمله.. لم يفضِ أمامي أى أحد بسرٍّ وأذعته ..لم أرَ من فضائحهم شيئًا ونشرته.. لم أخن الأمانة أبدًا ...تسألنى عن سبب إفشائى لتلك الأسرار لك الآن ؟

الحقيقة إننى لا أشعر بالسعادة.. فهم يعاملوننى باستخفاف رغم إنى أهم منهم جميعًا , ينظرون إلى بازدراء وأحيانا يتجاهلون وجودى تمامًا ولايلتفتون إلىّ أبدًا وكأننى غير مرئى ..فأردت أن أنتقم منهم وأفضحهم ..أفضح ضعفهم وعيوبهم ..أعرى غرورهم لكى يعرفوا قيمتى , إن ما يثير غضبى أنهم لا يلتفتون إلى إلا عندما ينقطع التيار الكهربى ..حينها فقط يتذكرون عمود النور!!

*****

القصة السابعة

أصعب قرار

بدأ يومه بنشاطٍ وسعادة شديد الزهو بنفسه - كعادته دائمًا- مرتديًا جلبابه وطاقيته .. فك حماره من مربطه وامتطى ظهره بشعور الملك, ولم لا ألايعلم الجميع أنه حمدون أحسن فلاحى القرية الذى يملك فدانًا من الأرض يزرعه بإحتراف حقيقى حتى أن الناس تحسده لإنتاجه الغزير المميز ومحصوله الوفير , وهو الوحيد الذى يملك حمارًا لايوجد له مثيل - على الرغم من حمقه وغبائه - ولكن يكفى أنه حماره .. يكفى أن يكون صاحبه حمدون ليصبح أفضل الحمير على الإطلاق, وحمدون رجلٌ قصيرٌ مربع الجسم مستدير الوجه، له شارب أسود يعتنى به كثيرًا ويبرمه فى خيلاء وفخر لأنه يعطيه انطباع (الباشوات) كما يعتقد, قاد حماره وإحساسه بالزهو يتعاظم فى نفسه مع كلِّ خطوة يخطوها فى الطريق الزراعى المطل على الترعة، ألقى نظرةً على يمينه .. حقول مترامية الأطراف خضراء زاهية، ولكن أين هى من حقله ؟! ..هاهو يتألق من بينها كالزمردة.. سار فى الطريق الزراعى المؤدى إلى حقله والترعة على يساره .. شاردًا يحلم بغدٍ باسم يستحقه لمواهبه المتعددة , حلم أنه امتلك كل الرقعة الزراعية الخضراء فى القرية والقرى المجاورة .. ملك كل الحقول ومزارعيها .. كل الأفدنة وفلاحيها ومواشيها ثم ملك كل بيوت القرية, ثم فجاة أصبح العمدة

يحكم الناس ويحكم بينهم ويمتلك (دوارًا) يستقبل فيه علية القوم ويقيم ولائم الطعام الفاخر ليدعو الضباط ومأمور قسم الشرطة، يجرى الخفراء عن يمينه ويساره وخلفه يدفعون عنه الناس ويوسعون الطريق لحضرة العمدة, ثم يخوض انتخابات البرلمان أيضًا فيفوز فيها ويصبح عضوًا بمجلس الشعب .. صاحب الحصانة البرلمانية الذى يأتي الناس من كلِّ مكانٍ ليتوسط لهم في وظيفة حكومية أو قضاء مصلحة لدى ذوى النفوذ، يصبح لقبه الجديد (حمدون بك) نصير الفلاحين والضعفاء.. يجلجل صوته تحت قبة البرلمان وهو يدافع عن قضايا الفلاحين وتكتب عنه الصحافة .. يلتقطون له الصور، ونظرًا لمواهبه المتعددة واتساع دائرة معارفه يقع عليه الاختيار ليكون وزيرًا.. يطلب منه السيد رئيس الوزراء أن يختار إحدى الوزرات ليتولاها فيختار وزارة الزراعة و يصبح حمدون بك وزير الزراعة, يحيطه الخدم والحشم والأتباع والوكلاء , و أول قرار سيتخذه هو إقصاء (محمود عبدالدايم) وكيل وزارة الزراعة الذى تقع قريته فى نطاقه, فهورجل مغرور لايلتفت لمطالب المزارعين، سبق أن طلب لقاءه فرفض .. لذا يجب معاقبته بتبديله فورًا !.. يركب سيارةً فارهة يحيط بها الأمن من كل ناحية..موكب يليق بسعادة الوزير، يلتقى زملاءه من

الوزراء وكبار رجال الحكومة ليناقشوا قضايا الشعب .. ونظرًا لنشاطه ودأبه فى العمل يطلبه رئيس الجمهورية ذات يومٍ ليطلب منه أن يشكل الحكومة فى التعديل الوزارى الجديد ..تنفتح الآفاق أمام حمدون فيصبح رئيس الوزراء الذى يرأس الحكومة كلها.. يصبح لقبه الجديد (دولة رئيس الوزراء) .. يطارده الإعلام بحثًا عن كلمة واحدة تتصدر الصحف ويتلهف الناس على سماعها من التليفزيون، يزداد الالتفاف الشعبى حول حمدون .. وفجأة ..يتخذ أخطر قرار فى حياته كلها .. قرار أن يخوض انتخابات الرئاسة ..

رئاسة الجمهورية ..

يصبح فى عمق دائرة صنع القرار السياسي فى البلاد وعلى أعلى مستوى ..وفجأة .. وجد نفسه فى عمق الترعة بعدما تعثر الحمار وألقاه فى الماء !! .. للحظات شلّته المفاجأة لأنه لايجيد السباحة وهذه من المهارات القليلة التافهة التى لايحسنها, لم يدربعقله يومًا أن يقع فى هذه الورطة ويكون حماره اللعين هو السبب فيها، كم تمنى لو أنه باعه من زمن.. خبط الماء بذراعيه بقوة وهويعلو ويهبط وتعالت شهقاته وهوينادى أى أحد لكى ينقذه ثم يصرخ بأعلى صوته:

- «الحقونيييييي»

وما من فائدة ..لا يوجد أحد ..راوده الشعور القوى

باقتراب النهاية واهتزت الرؤية أمام عينيه وكان آخر ما رآه غريبًا عسيرًا على التصديق ..لم يشعر إلا وهو على الأرض والناس ملتفون من حوله .. سألهم بدهشة كيف استطاعوا أن ينقذوه وماذا حدث؟!

تبرع أحد الفلاحين بكلمات موجزة يقص عليه ماحدث كأنما يحكى قصة خيالية، فهم منه أنهم وجدوا حماره خارجًا من الماء قابضًا على ملابسه بأسنانه وجرّه حتى وضعه فى منتصف الطريق ! ..نظر لحماره غير مصدق لما فعله ذلك الكائن الأحمق ..نظر له بدهشة ثم بامتنان، وأحد الفلاحين يقول له بصوت غير مصدق :

- لقد أنقذك هذا الحمار الخارق ..هذا الحمار المعجزة.. والذى لا يملك أحد مثله ،هنيئا لك هذا الحمار يا حمدون

سرعان ما عاد إليه شعوره بالعظمة فقال فى فخر:

- نعم نعم ..إنه حمارى ولقد حرصت على تدريبه على كل شئ.. وعلى كيفية التصرف فى الأزمات والمواقف الصعبة، ولابد بالطبع أن يكون حمارًا مميزًا ومختلفًا ولا مثيل له ..أليس حمارى؟!

وما لبثت القرية كلها أن سمعت بخبر الحمار المعجزة ..والناس بدأوا يتوافدون على دار حمدون لتهنئته بالسلامة مبدين إعجابهم بحماره الذكى الذى يختلف عن باقى حمير القرية فقال بغيظ مكتوم :

- بالطبع بالطبع.. إنه حمارى ولابد أن يصبح بهذا

الشكل - فقط -لأننى صاحبه وتطايرت الأنباء بعد ذلك للمدينة ومنها للصحف ووسائل الإعلام ومواقع الإنترنت, وأصبح الحمار حديث الناس فى كل مكان، وأصبحت القرية مزارًا لمراسلى القنوات الفضائية للحديث مع حمدون وتصوير حماره الأسطورة.. أول حمار ذكى فى العالم.. وحمدون يكاد يجن من هذا الاهتمام الذى يلقاه حماره ويصر على أنه- الحمار- لم يفعل شيئًا إلا لأنه دربه عليه ولأنه صاحبه, وعاشت القرية فى أجواء الاهتمام الصحفى والإعلامى لمدة طويلة، حتى كان هذا اليوم الذى جاءت فيه تلك السيارة الكبيرة والتى يبدو من هيئتها أن ركابها من خارج البلاد, وبين ترقب أهل القرية واهتمامهم هبط منها مجموعة من الأجانب ظن الناس أنهم مجموعة من السياح سمعوا بالخبر وجاءوا يلتقطون بعض الصور مع الحمار ولكن الكاميرات الكبيرة التى كانوا يحملونها أكدت للجميع خطأ ظنهم، حيث عرفوا بعد ذلك أنهم وكالة أنباء عالمية !

بدأ المذيع يتحدث ومعه مترجم والمصور يدير الكاميرا تصور كل ماحولها والمترجم ينقل لحمدون رغبة مذيع قناة cnn الإخبارية الأمريكية فى الحديث معه ! ..تراجع حمدون ذاهلا.. هل وصلت شهرته لهذا الحد ؟! حتى أن قناة أمريكية تأتى للحديث معه وتنقل صورته للعالم كله

أمريكا التى يعلم منذ صغره أنها أقوى بلاد الأرض وأكثرها شهرة، أعلن للمترجم قبوله وسعادته بإجراء الحوار فطلب منه إحضار الحمار لكى يصوره أثناء اللقاء ليكون الحمار فى الخلفية, وبالفعل أحضر حمدون حماره وبدأ المذيع يلقى أسئلته والمترجم ينقل الحوار لحمدون ثم يترجم حديثه بالإنجليزية، بدأ بالاسئلة التى سألها الجميع:

- ماذا حدث بالتحديد؟

- هل حقا أنقذك الحمار من الغرق؟ وكيف؟

وأجاب حمدون الأسئلة بسرعة وبساطة لأنه كان قد حفظها ،ثم بدأ سيل من أسئلة من نوع آخر لم يجد لها جوابًا أسئلة مثل:

- كم عمر هذا الحمار بالضبط؟

- ما نوعية طعامه وشرابه؟

- هل لديه نوع خاص من الذكاء؟!

- هل أجريت عليه تجارب علمية من قبل؟

- هل تدرس سلوكه بعناية ؟هل لك ملاحظات تم تدوينها ولمن قدمتها تحديدًا؟

ارتبك حمدون وتلعثم وهو يؤكد عدم فهمه لما يقولون، وبدأت موجة أخرى من الأسئلة أكثر عمقًا :

- هل هذا الحمار طليعة جيش من الحمير الذكية ؟

- هل سيستخدم كسلاح بيولوجى ؟

- هل هو طبيعى أم مهجن أم أنه معالج بالهندسة الوراثية ؟.. اللعنة لكل هذا.. إنه لايفقه حرفًا واحدًا مما يقوله ذلك المذيع اللعين، والأدهى من ذلك أن الكاميرا تنقل جهله هذا للعالم كله، لم يحب أن تكون صورته كذلك أمام الناس.. وهو الذى حلم طوال عمره أن يظهر فى التليفزيون، واليوم أتته الفرصة للمرة الأولى .. بينما حماره وقف ثابتًا لا يبالى بشئ، وعاد المذيع ليتحدث والمترجم ينقل كلامه ووصفه للحمار بأنه يعد الكشف العلمى الأكبر فى القرن الواحد والعشرين .وأنهى التصوير فتقدم رجل أشيب الشعر تبدو على ملامحه الجدية والخطورة وعرف نفسه لحمدون بأنه عالم أمريكى يدعى (عزرا تشيرمان) ونقل له رغبة الجهة التى ينتمى لها فى أخذ حماره لإجراء التجارب العلمية عليه - وذلك طبعًا مقابل آلاف الدولارات - بالإضافة لعرض أن ينتقل حمدون للإقامة فى الولايات المتحدة الأمريكية وحصوله كذلك على الجنسية الأمريكية .. كان العالم الأمريكى يتحدث العربية بطلاقة عجيبة إلا أن ذلك لم يدهش حمدون كثيرًا فهو يؤمن أن الأمريكيين قادرون على فعل أى شيء! ..لم يكن حمدون يمتلك ثقافة من أى نوع ولكنه لاحظ الرنين الغريب فى اسم العالم الأمريكى - عزرا - إنه يتذكر الآن.. لقد سمع بهذا الاسم فى أحد المسلسلات التي تتحدث عن

الجاسوسية وأعمال المخابرات , ولكنه تجاهل كل هذا وهو يحلم بحياته الجديدة والسيارة التى ستنقله لأى مكان، وسوف يشترى طائرة .. لا بل عشر طائرات مرة واحدة لكى يزور بها كل دول العالم، فهو لم ير مطارًا واحدًا فى حياته، ولا يعرف عن الطائرة سوى تلك النقطة البيضاء البعيدة اللامعة فى السماء تجر خلفها خيطًا أبيض ..نعم ..لماذا لايوافق على هذا العرض؟ لعلها تكون الفرصة التى يحلم بها طوال عمره ..فرصة حياة أفضل ..فرصة السفر والمال.. فرصة أن يصبح أمريكيًا .. ولكن الرجل يهودي .. إسرائيلى.. وإسرائيل هى أسوأ مكان فى العالم .. دوى الصوت داخله

« ليس هذا وقت التردد فليذهب كل شئ للجحيم.. كلّ شئ.. المهم أن تركب طائرة !»

اتخذ قراره بالموافقة واستعد لأعلان قراره هذا وفى نفس اللحظة كان لحماره رأى آخر, حيث دوّت صرخة هائلها كان صاحبها هو العالم الأمريكى نفسه, فبينما كان حمدون غارقًا فى أحلامه بالثراء اقترب هذا العالم من الحمار ليفحص فمه، ولكن الحمار أطبق على يديه بأسنانه ثم ركل الكاميرا فكسرها لتنتهى أحلام حمدون عند هذا الحد .. وانطلق حمار حمدون يجرى بحرية .. بسعادة بعد أن فشلت الصفقة.. ليثبت للعالم كله أنه حمار ذكى ..

ذكى جدًا..

القصة الثامنة

أنـــــوثة

تداخلت الخطوط التى حفرتها مريم فوق المائدة الخشبية حتى كونت شيئًا ما مبهم الملامح لا يعرف معناه سواها، اعتادت فى حصة الرياضيات أن ترسم مخاوفها فوق المائدة وتتأمل انعكاس وجهها على ظهر القلم الفضى ، ملامحها البيضاء الجميلة، عيناها السوداوان الخجلى دائمًا ،المسكونتان بآلاف الكلمات لكنها لا تجرؤ على البوح، أنفها الدقيق المنمنم علامة جمال ثالثة ..شفتاها المضمومتان باحمرار فطرى رائع ولكن .. ما بين أنفها وشفتيها وصمة تطاردها حتى فى أحلامها.. شعيرات مخضرة سخيفة شوهت جمالها وجلبت سخرية زملائها بالمدرسة (شارب) لوث جمالها كأنه بقعة زيت طفت فوق سطح النهر

-ماذا تفعلين يا مريم؟!

بسخرية عصبية ناداها الأستاذ خالد الذى يعتبرها - كما يقول- أفشل طالبة بالصف الثالث الإعدادي ! لا تنتبه للشرح، دائمًا شاردة ترسم.

ازداد احمرار وجهها بعدما انغرزت فيه نظرات الطلاب وأكملت باقى الحصة تحدق فى أرضية الحجرة، تعد قطع البلاط ..لا تجرؤ على رفع عينها خشية أن تصطدم بنظرات ساخرة من زملائها أو نظرة غاضبة من الاستاذ «وهكذا ننهى حصة اليوم وسأنتظركم الثلاثاء المقبل، اجيبوا عن كل التمارين ..تستطيعون الانصراف»

بهذه الجملة أنهى الأستاذ خالد الحصة واحتشد الطلاب عند الباب ليخترق أذنيها الرقيقتين صوت حاد ساخر :

«مريم ذات الشارب !»

صوت رقيع آخر :

«شاربها أكبر من شاربى»..

ضحكات ماجنة أدمعت عينيها وهى تتساءل بحيرة

لماذا يسخرون منى ويصرون على إيلامى؟

إنها لا تجرؤ على الشكوى للأستاذ، خجلها الطبيعى يمنعها.. تتحاشى الاصطدام بالآخرين دائما ولكن يبدو أن هذا لا يكفى، دائما ما يسخرون منها.. من صمتها وضعفها وخجلها و...شاربها

حاولت أن تخبر أمها بمشكلتها مرارًا فلم تلق لها بالا ، حدثتها عن سخريتهم وطلبت منها المعونة فلم تظفر منها بغير جملة واحدة

-دعك منهم

هكذا فقط .. وكأن المشكلة انتهت!

وعادت تبحر فى الصفحة الزرقاء الداكنة تعلق على هذا وتتفاعل مع تلك ، ولكن الأمر اليوم مختلف، لقد وصلت السخرية حد إطلاق الألقاب «مريم ذات الشارب» هكذا نعتها الحقير!

سالت دموعها فأغرقت طريق العودة للبيت يأسًا وخجلا لا تدرى كيف تصنع، فهى بلا خبرة على الاطلاق

تنهدت لتطلق زفراتها الحارة فى الهواء فتكاد تحرق النهار.. تغطى غشاوة الدموع عينيها فتريها الكائنات مهتزة كأنما يتراقص الناس فى الشارع سخرية منها وهمس الجالسين على المقهى يغتابها و ضحكات الطفل الذى يلهو فى الشارع مع أصدقاءه استهانة بها وبوجهها الذى ... «انتبهى أيتها الحمقاء»

أفزعتها الصيحة الغاضبة من فم سائق الميكروباص وهو يتفاداها بصعوبة تصاحبها أصوات نفير السيارات وتحول الشارع لفوضى جرت للناحية المقابلة تضرب نبضات قلبها فى سقف رأسها خوفًا وهربًا من نظرات المارة التى تحاصرها من عشر جهات ..

أكملت طريقها عدوًا حتى وصلت لبيتها لا تريد إلا البكاء فى حضن أمها فقط، ضغطت جرس الباب ثم أخرجت مفتاحها وفتحت الباب وهى تتساءل:

- أين ذهبت أمى؟

كانت أمها بالصالة تعبث فى (التابلت) ولم تكلف نفسها عناء فتح الباب أو حتى الالتفات لها وأخيرا لما طالت وقفتها فى منتصف الصالة

التفتت لها تسألها :

-مالك تلهثين هكذا ؟

قالت بصوت من تخشى العقاب :

-لقد تعرضت لحادثة سيارة

بلا مبالاة قالت أمها وهى تقرأ منشورًا ما:
-لقد طلبت منك مرارًا أن تنتبهى للطريق
اسودت الدنيا أمامها وهى تردف:
-إن الطلبة يسخرون منى يقولون لى» مريم ذات الشارب«
دون عن ترفع الأم عينيها عن الشاشة قالت:
-اخبرى الأستاذ
أسقط فى يدها وهى ترى كل الخيوط التى تربطها بالحياة تتمزق لقد بدت لها حياتها سلسلة من الاحباطات لا تستحق أن تعاش، فكت غطاء رأسها الذى يخنقها ثم نظرت فى مرآة الحمام عيناها حمراوان.. كأسان من الدم وجهها منتفخ- كيف لم تلحظ أمى ذلك؟! - ثم هذا الكائن الوقح الذى ينمو فوق شفتيها فيطردها من مملكة الأنوثة ويدفعها لعالم الصبيان يجثم فوق فمها رمزًا للسخرية، واتخذت قرارها بإنهاء هذه الحياة.. فتشت فى أشياء أبيها حتى وجدت ما تريد ..ماكينة حلاقة لم يستعملها مازالت مغلفة، أخرجتها وكأنما تستل الخنجر من غمده.. لمع نصل الشفرة أمامها ومعه لمعت الفكرة فى رأسها وعروقها الخضراء تنبض إذ رفعت يدها أمام عينيها وكأنها تغريها على فعلتها، كأن أوردتها تدعوها أن تنهى المأساة.. رفعت الشفرة أمام عينيها وقلبها يرتجف من هول القادم والدموع تنساب على وجنتيها ثم فجأة هوت بها...
وبدأت الحلاقة...

القصة التاسعة

أحـــــلام

أشرقت الشمس على الدنيا واكتحلت السماء بنور الصباح استيقظت كل الأشجار فرحة بالنسيم والضياء، وعلى إحداها وقف العصفور يتأمل روعة الطبيعة في الصباح الجديد ويجول ببصره فى أنحاء الأخضر الممتد أمامه، يسبح الله على ما أبدع وبينما غرق فى تأملاته استرعى انتباهه شيء ما هناك في الكتلة السكنية المقابلة والتي كانت بيوتها مازالت غافية ..كان هناك في الدور الرابع في منتصف البناية المواجهة له مباشرة نافذة مضاءة تعنى أن صاحبها لم ينم طوال الليل، يجلس خلف النافذة مهمومًا شاردًا ينفث سحب الدخان.. عجيب أمر هذا الإنسان يسهر ليلا وينام نهارا, وأى شيء هذا الذى يخرج من فمه؟! دخان كثيف كأن فمه يحترق!.. ولماذا يبدو حزينا هكذا؟ وهو الذى يملك الحرية لفعل أى شىء فى أى وقت.. ماذا لو كان يسعى كل يوم قبل شروق الشمس في طلب الحبوب لإطعام صغاره ويستمر في البحث حتى غروبها ؟.. سرح العصفور بخياله بعيدًا ..آه لو أننى أستطيع أن أصبح مثله ..أن أعيش حياتى كما أريد.. أنام في أى وقت وأستيقظ وقتما أحب متأخرًا، وآكل من كل الأطعمة الشهية شريطة ألا أقرب أى نوع من أنواع الحبوب, وأستبدل بالعش اليابس منزلًا واسعًا به وسائد وسرير، وأرتدى ملابس جميلة في الشتاء والصيف بدلًا من هذا الريش الذى لا أملك غيره ..

أعيش آمنا من خطر الصيادين والطيور الجارحة والثعابين، ما أحلى حياة الإنسان , ليتنى كنت إنسانا ولكن كيف أصبح مثله؟ أنا مجرد عصفور صغير.. بل كيف أعبر عن رغبتى هذه وأنا لا أستطيع الحديث؟ بينما يمتلك هو لسانًا يخرج أصواتًا تعبر عما يريد، أما أنا فلو تحدثت معه سيصبح حديثى مجرد شقشقة بلا معنى ..لن يفهم شيئًا ..ما أجمل الأحلام وأصعب تحقيقها !..ولكن لأقترب منه وأحاول .. ربما أجد طريقة أو يجد هو طريقة ..أليس كائنا عاقلا يفكر؟ وطار العصفور حتى حطّ على حافة النافذة...

*****

غرق عادل في محيط همومه الخاصة ..كلما نظر إلى حياته وجدها تزداد سوءًا كل يوم فزوجته دينا لم تعد كما كانت، يتذكر أول لقاء له بها.. كانت وديعة ورقيقة كانت قنوعة، ولكنها بعد عشر سنوات من الزواج تبدلت تمامًا وصارت تلك المرأة الشرسة حادة الطباع التي لا ترضى عن أى شيء وتصرخ دائمًا بلا سبب حتى أنه أحيانًا يظن أن بها مس من جنون! ..أمس الأول دارت بينهما مناقشة بسيطة تطورت لمنازلة كلامية حادة تركت له على إثرها المنزل وذهبت إلى بيت أهلها عازمة ألا تعود .. أف لكل هذا.. لقد سأم كل تلك المشكلات

سام زوجته وسأم عمله, حتى حياته سأمها، ماذا يحدث لو أنه شخص آخر أو حتى كائن آخر؟.. مثل هذا العصفور هناك والذى يقف على حافة النافذة.. هذا العصفور ليس لديه مشكلات من أى نوع فهويستطيع أن يشبع هو وأطفاله يومًا كاملًا بحفنة من الحبوب يلتقطها من أى حقل قريب.. يستطيع الزواج بكل سهولة بلا شبكة أو مهر ..بلا ذهب أو شقة أو أثاث ..مجرد عش صغير، كم يتمنى لو أنه أصبح مثله .. يطير في الصباح محلقًا لأى مكان، لايعوقه شيء ..يترك همومه على الأرض ويرحل بعيدًا، يتخلص من حياته المعقدة ومنزله الذى لم يعد يطيقه ويسكن أعلى الأشجار حيث الهواء النقى والخضرة الدائمة .. حيث لا توجد مشكلات عمل أو زحمة مواصلات أو زوجة غاضبة..

كم يتمنى أن يصير مثل هذا العصفور، ولكن كيف السبيل؟ كيف ينقل له تلك الرغبة؟ لو كان إنسانًا ينطق لاستطاع أن يحاوره ويفهمه، لكنه طائر.. مجرد طائر.. ما أجمل الأحلام وما أصعب تحقيقها !

دنا منه بحذر ومد يده للعصفور ببطء شديد، ولدهشته فقد مد الآخر جناحه كذلك وكأنهما يتصافحان .. وفى لحظة واحدة ومضت في رأس كل منهما فكرة بمجرد التصافح ..فكرة ليست بلغة تشبه لغات العالم، بل مجرد فكرة مفرداتها الشعور بالرغبة المشتركة في تبادل الأدوار وحملت كذلك موافقة الطرفين ..

عقد تم إبرامه في لحظة واحدة بلا توقيع، واشتعل بداخلهما السؤال.. إن كان هناك اتفاق فكيف السبيل إلى تنفيذه؟ ما الطريقة التي يتبادلان بها الأدوار والأوضاع وكيف تنفذ ؟ ما الوسيلة التي يتحول بها الإنسان عصفورًا والعكس؟ وهزتهما الصدمة لهذه المشكلة التي تعوق تحقيق الحلم، وانفلت الجناح من اليد من وقع المفاجاة ليعلن توقف الاتفاق وموته قبل أن يولد، وبينما هما مشغولان بأثر الصدمة يبحثان عن طريقة لتجاوز هذه العقبة إذا بيد رقيقة تدق الباب يعقبها صوت هامس انطلق عادل إلى الباب وهو يعلم أنها زوجته وما أن رأته حتى ارتمت في أحضانه تبكى وتقبله وتعتذر.. رأى العصفور هذا المشهد المؤثر فدمعت عيناه فرحًا وتأثرا بلم شمل هذه الأسرة مرة أخرى، وحزنًا على حلمه الذى انتهى قبل بدايته...وفرد جناحيه الصغيرين وحلق بعيدًا ..بعيدًا..تدفع به يد الشجن وتتلقفه رياح اليأس.. يبكى بدمع من ندم على حلمه الذى لم يكتب له أن يولد, وما زالت الأحلام تطارده في يقظته، عجيب هو هذا الشئ الذى يشعر به الإنسان.. شيء يجعل كل فرد منهم ينجذب للآخر ويشتاق إليه إذا ابتعد ويغفر له إذا أخطأ.. بل والأعجب أنه لا يعرف فردًا آخر من نفس النوع !.. وبينما يتجول بين الحقول رأى تلك الخضرة الزاهية، مجموعة أشجار ملتفة لم يرها من قبل مليئة بالثمار الناضجة وتحيطها أزهار متفتحة من شتى الألوان

والأشكال، وهناك فوق أحد تلك الغصون شاهدها.. عصفورة فائقة الجمال لها ريش كثيف ينساب في نعومة فوق جسدها الجميل بديع الألوان في تناسق رائع، أما عيناها ..عالم من السحر والخيال.. شعر بقلبه ينبض وينتفض لرؤيتها ،استجمع شجاعته واقترب منها محييًا فردت عليه تحيته بتغريدة موسيقية كروانية ..سألها :

- هل أنت متزوجة؟

احمرّ وجهها حياء وهى ترد بالنفي

- لا

طلب منها الزواج بفرحة صبغت ريشه باللون الوردى :

- هل تتزوجينى ؟

ووافقت فكاد يطير من السعادة!!.. لقد عرف الآن سر هذا الشئ الذى يربط الآدميين ببعضهم وإن كان لا يعرف اسمه إلا أنه أحس به، تذكر كيف كانت لهفته على أن يصبح إنسانًا وتساءل في أعماقه :

«لوأننى أصبحت إنسانًا فكيف كنت سأتزوج هذه المخلوقة الفاتنة ؟»

رأت شروده فهمست بصوتها المغرِّد :

- فيم تفكر؟

أجاب بصمت باسم..فقالت فى حنق :

- إن لم تجبنى سأغضب منك ولن أحدثك باقى اليوم ..

ابتسم ثانية وقال في ارتياح :

- كنت أحمد الله أني ولدت عصفورًا.!.

القصة العاشرة

غُـــــراب

انطلق الصغار يجرون بعبث طفولى محبب.. يتخبطون أقدام المارة بلا وعى ولا اهتمام، يتصايحون فى حلقات أو أحيانا يتقافزون دونما تحفظ .. يجمعون التراب أكوامًا ويقفون فوقه فى ثبات، وحينًا يرصون قطع الفخارسبع طبقات يضربونها بكرة صغيرة ويجرون، أو يعبثون بجلباب (غراب) عبيط القرية ، والذى يجدون كل المتعة فى اللعب معه ..وبه ..وشد أثوابه وإغاظته! .. اليوم جروا خلفه وضربه أحدهم بحجر في رأسه شجّ جبهته فانفجرغراب غضبًا وجرى خلفهم يطاردهم وهم يجرون بين صيحات الخوف المختلطة بالضحكات السادية , وغراب هوعبيط القرية حقًا لكن لا أحد يعرفه أو يعرف من أين جاء.. ظهر غراب فى قريتهم فجأة.. وجدوه .. اعتادوا عليه وأصبح واحدًا منهم كعادة المصريين جميعًا .. الألفة أسرع هرمون يجرى فى دمائهم !

يجودون عليه بطعامهم الذى يتكون من كسرة خبزوقطعة من الجبن القديم, أحيانًا بعض الفول فى صحن لم يعودوا بحاجة إليه, قد يعطيه بعض الأثرياء قطعة من الدجاج فيأخذها ويختفى بها عن الأنظار ..لم يكن غراب يأكل أمام أحد بل يأخذ طعامه و يغيب قليلًا ليأكله فى مكان ما ثم يعود ليجلس تحت نخلة أو بجوار الساقية أو فى ظل أحد البيوت، أحيانًا يمنحوه ما ضاق عليهم من ملابس لتقيه برد الشتاء ، وغراب يبيت

فى أى مكان، يبيت فى المسجد فى أيام الشتاء ..أما فى الصيف فينام بجوار الساقية ..أو فى أحد الحقول, اعتاد الأطفال أن يعبثوا به ويجرى خلفهم فى كل مكان لكنهم يتحاشون بالطبع مكان البيت المهجور؛ فجميع أولاد القرية يخافون مجرد الاقتراب من هذا البيت , وإن كان بعضهم يزعم أنه رأى غراب يدخله ويبيت فيه أحيانًا لكنها تبقى مجرد إشاعة غير مؤكدة لعلمهم أنه لا أحد يستطيع الاقتراب من البيت القديم الذى هجره صاحبه ويدعى (شعبان) موظف بالمساحة، هجره بعد أن انتحرت زوجته برمى نفسها من فوق السطح، ويقال أن زوجها هو من رمى بها وأنها لم تنتحر بل ماتت مقتولة , ومن يومها زاد الحديث عن البيت وصاحبه وزوجته وتعددت الأقاويل وحققت المباحث في الأمر ولم تثبت شيئًا وبالتالى قيدت القضية انتحارًا، ومرت الأيام وشعبان يعيش وحده وأهل القرية يسمعون الصراخ ليلًا يشق الظلام.. صرخات مجهولة المصدر تأتى من جهة البيت .. صرخات تشبه صوت زوجة شعبان تمامًا, الزوجة التى سقطت من فوق السطح .. الزوجة الميتة! .. يقترب البعض بحذر من البيت لعله يعرف مصدر الصوت إلا أنه يجده مظلمًا ..أنواره كلها مطفأة .. ينادون صاحب البيت فيسكت الصوت تمامًا بمجرد أن يبدأوا فى النداء.. ويخرج لهم شعبان من بابه المظلم يكسو النوم وجهه ليسألهم عما يريدون فيخبروه بحكاية الصرخات المرعبة التى سمعوها ،

ليقسم لهم أنه لم يسمع شيئا! .. وهكذا يعتذرون له وإن كانت الحيرة تمزقهم فلا يدرون سببًا لما يحدث, وتمر الأيام ويعتاد أهل القرية سماع الصرخات، وإن كان أحدهم لم يجرؤ أن يقترب ليعرف..كل ما عرفوه وأيقنوا منه هو أن هذا البيت أصبح ملعونًا تسكنه العفاريت.. وتعجبوا كيف يعيش به صاحبه بمفرده ..وفجأة.. اكتشف أهل القرية اختفاء شعبان .. لا يدرون هل سافر أم هرب ؟ ولكنه لم يظهر من يومها أبدًا ولم يجرؤ أحدهم - بطبيعة الحال - على اقتحام البيت أو حتى الاقتراب منه خاصة بعد أن ولدت قصة البيت المهجور الذى تسكنه العفاريت ثم ولدت أسطورة أمنا الغولة التي اتخذت منه وكرًا لها تجر ضحاياها إليه لتلتهمهم.. اختفى شعبان في ظروف غامضة وبعد عدة سنوات ظهر غراب ، لم يكن هذا اسمه ..ولكنهم اطلقوا عليه الاسم نظرًا لأنّ كل شيء فيه كان أسودًا.. ملامحه المتسخة المبهمة غير الواضحة، شعره الأسود وملابسه السوداء المغبرة .. وعندما يقترب الظلام تبدأ كل أم فى البحث عن أبنائها تلملمهم من الشارع وسط صراخ وصيحات احتجاج، تفاجئ بكومة من الطين المتيبس فى الأظافر ..وشعر معجون بالتراب، وقدمين نسيتا لونهما.. تجذب كل أم طفلها وتدخله الحمام قسرًا ليستحم ..وتبدأ بركة الطين اليابسة في الذوبان وأكوام التراب تسيل مع الماء .. ولا تنسي التهديد اليومى «إن من يلعب فى الشارع بعد المغرب تأكله أمنا الغولة»

وينطلق سؤال برئ يرتجف هلعًا من عينين جحظت رعبًا :
- ومن هي أمنا الغولة؟
فتجيب الأم بلهجة تخيفها هي نفسها:
- وحش أسود مفترس يأكل الأطفال الذين لا يطيعون أمهاتهم ويرفضون النوم مبكرًا ، أو يصرون على اللعب بعد المغرب .. وأمنا الغولة تسكن فى البيت المهجور وهكذا يتكور كل طفل تحت غطاءه تعبًا وخوفًا، يمتلئ رأسه بأحلام النهار وبقايا من خيالات أمنا الغولة .. تتكرر القصة فى كل بيوت القرية مع كل أطفالها فالحلم يسيطر على كل البيوت..
أما عن القرية فى النهار فالدروب مغبرة والحقول ممتدة، وصياح الأطفال يملأ ذرات الهواء .. والفلاحون يسوقون حميرهم ودوابهم طيلة النهار ذهابًا وإيابًا .. وحين يجتمع الأطفال تبدأ الحكايات فى الولادة، كل طفل له قصة سمعها من أمه أو جدته، وكل أم مؤلف مستقل بأسلوبه.. مختلف فى مفرداته وبلاغته .. فتجد هذه تضيف كلمة تصف لونها ..وتلك تصوغ عبارة تصف أسنانها وثالثة تضيف وصفًا لكيفية افتراس الآخرين ..ورابعة وخامسة ..على الرغم أن واحدة منهن لم ترها من قبل لكن دقة الوصف مرعبة فى حد ذاتها .. وتختلف الأوصاف ولكن يتفق الجميع على اسم واحد (أمنا الغولة) ، ولا أحد يدرى من أين ولدت هذه التسمية .. حيث كلمة (أمنا) توحى بالحميمية والحنان والطيبة فكيف يتفق ذلك مع الغولة ؟!..

ولكن بعض المتعمقين فى هذا الأمر قالوا إنها محاولة - لا إرادية - لتخفيف الجو المرعب المحيط بالصورة بإظهارها فى صورة آدمية .. البعض الآخر يرى أنه اسم نابع من الخداع.. حين ترتدى الغولة ثوب الحنان لتفترس ضحاياها الذين يطمئنون لها فيكون الرعب نابعًا من الخداع ..من المفاجأة .. من كونه يأتى من مصدر موثوق منه .. مصدر مأمون الجانب..

لذلك نجد أن أطفال القرية تتجمع كل حكاياهم حول هذا الكائن الأسطوري أمنا الغولة، واتفق الأولاد -وآه من اتفاق الأولاد - على أن يستمر لعبهم بعد المغرب أملا فى رؤية الغولة .. وهى مغامرة قد تكون عاقبتها أن تأكلهم أمنا الغولة أو يحدث الأسوأ.. أن تأكلهم أمهاتهم! .. بدت الوجوه شاحبة والخطوات مترددة خاصة عند اقتراب غروب الشمس وبداية ظهور صيحات الأمهات ينادين الصغار، وفى وسط فوضى الأصوات اختفت بعض الوجوه وعادت لمنازلها خوفًا، وبدأ العدد يتناقص حتى أصبحوا أربعة فقط.. نظر كل منهم للآخرين ودون اتفاق جروا ناحية البيت المهجور الذى يقال أن أمنا الغولة تعيش فيه.. كانوا أربعة صبيان يجمعهم اللعب كل يوم ..أحدهم وهو قائدهم وأشجعهم وصاحب فكرة هذه المغامرة ..اسمه صالح ..طفل بدين لكنه سريع الحركة إلى حد مدهش.. والثانى أخوه سعيد الذى يصغره بعامين ولا يقل عنه بدانة ..أما الآخران فمحمود طويل نحيف أسمر اللون جاحظ العينين

والأخير عبدالمنعم أقصر الأربعة وأسرعهم جريًا ..فريق غريب غير متجانس جمع بينهم حب المغامرة وارتياد المجهول، سمعوا أمهاتهم ينادين أسماءهم بغضب فى البداية ثم بخوف لما طال الأمر فقرروا الاختباء خلف جدار البيت حتى يعم الظلام ولا يراهم أحد .. الصيحات تنطلق من كل صوب وهم ملتزمون الصمت إلى أن قال صالح:

- يجب علينا أن نلقى نظرة ونعود سريعًا هيا بنا

تبعه الآخرون بلا وعى.. الرعب يخنق أنفاسهم وهم يتسللون من باب البيت الذى يعتبرونه منذ وعوا الدنيا محرمًا، هكذا قال لهم الأباء وأمرت الأمهات .. هكذا حذروهم .. وقفوا بعدما اجتازوا باب البيت بخطوة واحدة يتلفتون حولهم ..يسبحون وسط بحر الظلام الدامس.. لا يرون شيئًا ولا يسمعون أي صوت ..وكأن البيت فى حفرة خارج حدود الأرض.. فقال عبد المنعم لاهثا :

- لايوجد شى هنا ..هيا نعود

قال صالح بأنفاس متقطعة مذهولة :

- إننا لم ندخل بعد وقد نرى شيئًا بالداخل

ترددت على خطواتهم ملامح الفرار خاصة حينما قال عبد المنعم :

- نعم ينبغى أن نعود فأمى ستعاقبنى بشدة لو علمت أننى دخلت البيت

الأصوات مازالت تعلو فى الخارج بحثًا عنهم مما زاد من توترهم إلى أن قرر صالح أن يرجعوا ..

وبينما يستعدون للعودة سمعوا أنينًا خافتًا ولكنه واضح لشخص يتألم .. صوت مفزع منخفض عالٍ فى نفس الوقت كان الصوت عاليًا فى آذانهم .. أم أنه الصمت يضخم الأصوات؟ أم هى المفاجأة والصدمة ؟ وكان الصوت منخفضًا لم يسمعه إلا هم .. وكأنه يتعمد ألا يسمعه سواهم !.. ذهلوا لما سمعوا وانطلقوا يجرون للخارج، يتعثرون ويقومون ..جفت حلوقهم فزعًا وزاد نبض قلوبهم حتى صم آذانهم.. وفى الخارج وجدوا الجميع واقفين.. القرية كلها احتشدت أمام البيت ..وكأنّ البعض كان يتوقع أنهم جاءوا إلى هنا بالتحديد.. ربما بحكم خبرة العجائز وحكمتهم أدركوا أن فضول الأطفال سيدفعهم للمجئ هنا ، وربما أدركوا أيضًا أنه لايوجد لهم مكان يختبئون فيه فى القرية كلها إلا هذا بأصوات لاهثة وأنفاس متقطعة وألسنة ترتجف رعبًا حكوا لأمهاتهم وللجميع ماحدث .. كيف أنهم قرروا أن يدخلوا البيت ليروا ما بداخله و سمعوا صوت أمنا الغولة ، وكل منهم يصفه بكلمة تصور كم كان الصوت غليظًا متوحشًا كأن الصوت يريد أن يفترسهم!.. نظرات صامتة من رجال القرية عقدت اتفاقًا غير مكتوب .. عادت القرية كلها إلى منازلها وكل أم تحتضن طفلها خوفًا وشفقة، كما لو كانت تريد أن تنسيه هول ما رآه وسمعه ..تريد أن تزيل الرعب الذى سكن فى عينيه وحفرملامحه على وجهه ..لم تعاقب أى أم طفلها بعدما رأت وجهه .. ربما لأنها رأت أن ما مر به يكفيه وأنه عوقب

أشنع عقاب بكل هذا الفزع الذى عاشه فى الساعة الماضية، بات رجال القرية كلهم فى قلق كبير ومع صلاة الفجر عزموا على اقتحام البيت المهجور نهارًا مع بعض المشايخ وحفظة القرآن ليطردوا منه الشياطين التى تسكنه.. يطردوا منه أمنا الغولة.. واقتحم الرجال البيت المهجور لكنهم لم يجدوا شيئًا غير بعض العظام مختلفة الأحجام بعضها صغيرة وبعضها كبيرة الحجم, شعروا بالتقزز جميعهم نظر بعضهم لبعض فى قلق وتوجس قطعه أحدهم متسائلا :

- هل هذا هو طعام الغولة؟!

أجابه آخر:

- هذه عظام ضحاياها !

فرد ثالث :

-سمعت أنها تبتلع الضحية إن كانت صغيرة أما إن كانت كبيرة فتنهش لحمها

وفى وسط اللغط الدائر قال إمام المسجد:

- يجب أن تشرعوا في عملكم فورا لتهدموا وكر الشيطان..

اتخذوا قرارهم بتسوية البيت بالأرض وطال الأمر حتى استغرق منهم معظم النهار، اشترك كل شباب القرية ورجالها وأطفالها فى أعمال الهدد ونقل الطوب وأكوام الطين اليابس والتراب والقاءها فى الترعة القبلية بعيدًا عن البيوت تخلصًا منها لإيمانهم أنها تنجست بالأرواح الخبيثة, ثم جمعوا ما تبقى من العظام التى وجدوها مع حطب البيت وأشعلوا فيه النار ..ولأول مرة تبيت

القرية بدون البيت مهجور ، وبرغم مرورالأيام لم يستطع الناس أن ينسوا أمنا الغولة، وكانوا ينظرون بخوف لمكان البيت المهجوركلما مروا من أمامه.. كأنه اكتسب هالة من الرعب ..حتى بعد أن أزالوه وأحرقوه ..ولكنهم على كل حال انشغلوا فى حياتهم حتى أنهم نسوا عبيط القرية (غراب) الذى رحل عن قريتهم من يومها ولم يره أحدهم أبدًا .

*****

القصة الحادية عشرة

ضد التيار

تأمّلت رحاب ملامحها الجميلة وملابسها الأنيقة أمام المرآة قبل مغادرة المنزل استعدادًا لأهم حدثٍ فى حياتها .. الحدث الذى سيحدد مصيرها ومصير أمّها ويضع كلمة الختام لصراعها المحموم ضد عمّها, والذى جرّ عليها حروبًا جانبيةً لاحصر لها مع باقى أفراد عائلتها وتقاليدهم المتوارثة..حتى مع أمها .. الجميع تكتّلوا فى جبهاتٍ ضدّها ولم تملك فى مواجهتهم إلا سلاح الإرادة والإيمان بالمبدإ..والتحدى .. منذ وفاة والدها (موظف الرى) وهى تعيش فى صراعٍ قضائي امتد لثلاثِ سنواتٍ مع عمّها بخصوص بيتهم، مجرد بيتٍ قديمٍ متهالكٍ يلملم شتاتها وأمها ويسترهما, يوارى سوءاتهما ويحفظهما من عيون الذئاب وأنياب شياطين البشر.. بيت شهد طفولتها وشبابها وأحلى ذكريات عمرها, وعلى الرغم من ذلك يريد عمُّها طردها وأمها منه لأنه تقليدٌ مغروسٌ فى بلادنا منذ قديم الزمان, إنّ بيت المتوفَى من حق إخوته لأنّهم لايورّثون النساء!.. ولم يأبه لكونهما امرأتين ضعيفتين لا سند لهما وآثر أن يشبع أطماعه حتى لو أغرقهما فى لجج الضياع, وغضّ الطرف عن أبسط قواعد الدين والرجولة والشهامة وصلة الرحم .. بل والإنسانية .. ولما رفضا الخروج من البيت رفع ضدهما دعوى طرد!.. ولأنها تعمل بالمحاماة قرّرت خوض القانونية القذرة .. قذرة لأنها ضد أمسّ الناس قُربى .. عمّها .. وقذرة فى نظر الناس فلم تسلم

من حراب ألسنتهم تعمق جراحها كلّ يوم منذ قررت أن تتحداه.. لم تسلم من لومهم.. اتهموها بالعقوق ومخالفة تقاليدهم دون أن يحاول أحدهم توجيه ولو كلمةٍ واحدةٍ للعم الجائر .. واليوم موعد جلسة الحكم النهائية فى القضية التى لو كسبتها ستمنعه من الاستيلاء على البيت ...ستمنعه من تشريدهما...

-أما زلتِ مُصرّة على ما تفعليه؟

انتشلتها أمها من خواطرها الشاردة فتنهدت:

-أرجوكِ يا أمى ..هذه هى المرة الألف التى نتحدث فيها عن هذا الأمر.. أنا لن أتخلى عن مبدئى وما أُؤمن به وسوف.....

قاطعتها الأم بغضب:

-أى مبدإٍ وأى إيمان يجعلك تقفين أمام عمك فى ساحات المحاكم؟ .. يدفعك للعقوق ..لتأليب كلِّ العائلة ضدنا؟

ردّت رحاب بحدة:

- المبدأ الذى رسّخه القدير منذ خلق الكون

«الحقُّ أحقُّ أن يُتبع»

ما أفعله هو ما يقرُّه الشرع والقانون, أما ما فعله عمّى فهو العقوق والظلم ..هومن يستحق غضب الله ولستُ أنا..

قالت الأم بلهجةٍ متخاذلة:

- يا بُنيتى ..إنّ الناس يتحدثون ولم أعد أحتمل كلماتهم التى تطعننى, يقولون بعد وفاة والدكِ لم يعد لنا من يكبح جماحنا.. ونحن لانملك إلا سمعتنا ..تراجعى عن تلك القضية هداكِ الله

قالت رحاب بثورة:
- ولماذا لم يستحِ هو من ظُلمه؟ لماذا لم يلُمه الناسُ بدلًا من مطالبتنا نحن - المجنيّ عليهن- بالسكوت؟!
لن أتنازل عن حقى من أجل تقاليد باليةٍ لايقرُّها شرعٌ ولا قانون, من أجل مجتمعٍ منافقٍ يناصر الظالم ويهاجم المجنيّ عليه.. لن.....
وعادت أمها تقاطعها وهى تطوّقها بذراعيها بحنانٍ:
-إنّها التقاليد يابنيتى.. لسنا من أقرّها بل هذا ما وجدنا عليه الناس منذ مولدنا..هكذا حياتنا..وأنتِ لن تصلحى الكون...
أزاحت رحاب يد أمّها برفق:
-آسفة يا أمى.. لن أستطيع
عادت الأم تزفُر بضيق:
-إذن فلن أصحبكِ لهذه الجلسة المشئومة.. فأنا أرفض ما تفعليه ضد عمك (الحاج)
هزّت رحاب رأسها بسخريةٍ:
-الحاج!
ثم انسحبت للخارج وسط صيحات أمّها وهى تنادى عليها... ولكن بلا فائدة...

****

حكمت المحكمة برفض دعوى الطرد مع إلزام المُدّعِى بمصاريف المحاماة..رُفعت الجلسة

****

عادت رحاب تطير على أجنحة الفرح لبيتها فوجدت أمّها جالسةً وقد التهم القلقُ أعصابها خوفًا وطمعًا

وحولها بعض الجارات يواسينها فى عقوق ابنتها!.. مثل البوم لا يجتمعنَ إلا فى خبيث القول أو انتظارًا لمصيبةٍ تهديهم أيامًا للاستمتاع بالحديث عنها.. فما إن أخبرتهم بما حدث وأنها كسبت القضية ولن يستطيع عمّها أن يطردهما من البيت حتى تهللت أسارير أمها وفوجئت بالجارات يطلقنَ الزغاريد ابتهاجًا ويُشِدنَ بموقفها فى التصدى لعمها الظالم الذى لم يجد من يردُه!

وانهالت عليها عبارات المديح

«فتاةٌ تعادل مئة رجل» .. «لم يمُت من أنجبَ مثلكِ» ..نفس الجارات اللائي اتهمنها بالعقوق تبدّل موقفهنّ للنقيض .. ما أعجب المجتمع وأشدّ نفاقه! ..بل ما أغرب طبائع البشر التى لو ظلّت عمرها كلّه تدرسها لَمَا فهمتها...

سألتها إحدى العجائز بخبث:

-وكيف استطعتِ أن تقفى أمام عمكِ فى المحكمة ؟

أجابت بتواضع المنتصر وثقة صاحبِ الحق:

-كان لابد ألا نستسلم لتقاليد (فاسدة) حتى وإن دافع (البعض) عنها ثم غيّر موقفه مؤخرًا..!

مطت العجوز شفتيها امتعاضًا ثم انصرفت ومعها الجميع, وأغلقت رحاب باب بيتها تاركةً أمّها تحتضنها بنظرات الفخر, ودخلت غرفتها فاستلقت على السرير بإنهاك.. ولأول مرةٍ منذ تُوفِّى والدها...

نامت...

القصة الثانية عشرة

الآخـــرون

لم تعد الحياة ممكنة فى هذا الكوكب الغريب.. كل شئ حولى أصبح مليئًا بالقيود والشعور الكريه بالسجن تخلل كل ساعات النهار ولا يوجد ما أفعله.. لا يوجد أى شئ ..كثيرًا ما كنت أسال نفسي:
«لماذا أعيش وما قيمة حياتى إن كانت بغير حرية ؟»
الحرية هى الشيء الوحيد الذى يجعل لحياتى معنى .. يعطى ليومى أملًا جديدًا أستلهمه من غدى فأصبر على آلام اليوم رغبة فى تحقيق آمال الغد .. الحرية هى الدم الذى يجرى فى عروقى فيهبنى الحياة ..الحرية هى الحياة .. وكم حاولت أن أهرب ولكن بلا جدوى لأن أسوار حجرة العزل التي وضعونى فيها عالية صلبة لا تقبل الكسر، ولا أملك الأدوات لتحطيمها , مغلقة من الأعلى والأسفل بلا أية وسيلة لتجاوزها , صحيح أن بها فتحات ضيقة جدًا ولكنها لا تكفى لمرورى.. منذ أن اختطفونى صغيرًا ولم أكن أدرك شيئًا حينها إلا أنى أتذكر أننى كنت أعيش فى كوكب الأرض بسلام وفجأة رأيت المركبة الفضائية الضخمة يهبط منها مجموعة من الكائنات الفضائية بأسلحتهم العجيبة واختطفونى أنا ومجموعة أخرى من صغار السن.. وضعونا بمركبتهم ثم أدخلونا فى هذه المستعمرة الفضائية، ومن حين لآخر يأتى أحد المختطفين ليفحص أجسادنا ويغرز فيها آلة حادة فى يده أفاجئ بعدها بخدرغريب يسرى فى جسدى ولكن أعصابى تصبح أهدأ..ثم أنام .. أحيانا أخرى أجد مجموعة

من الكائنات الفضائية الصغيرة تلقى إلينا ببعض الطعام من فتحات غرفة العزل, الغريب فى المختطفين يتحدثون بلغة غاية فى الإزعاج.. لغة لا أملك أمامها إلا الضحك لهذه الأصوات المزعجة الشاذة التى تخرج من أفواههم الرفيعة السخيفة.. أما شكلهم الخارجى فهو شبيه بأجسادنا بعض الشيء - وإن كانت أجسادنا أجمل بالطبع - إضافة إلى أن جباههم ضيقة صغيرة تنم عن الغباء ولديهم فوق رؤوسهم زوائد عجيبة ملونة لم أر شبيها لها من قبل... بخلاف تلك الأشياء الغريبة التى يضعونها على أجسامهم القبيحة يغطونها بها .. ماذا أقول لك عن هذه المخلوقات ؟! ..اليوم قررت أن أفعل شيئًا جديدًا.. شيئًا مختلفًا .. جاءت أحد المركبات تحمل عددًا من الكائنات صغيرة الحجم و تراصوا جميعًا خارج أسوار حجرة العزل التى أقف فيها ورمى أحدهم- كعادته - شيئًا من الطعام نحوى فما كان منى إلا أن أمسكت به وضربت به وجهه بكل قوة وأنا أشعر أن دماء الحرية تثور في أعماقى.. قررت التمرد و تأهبت للمعركة القادمة.. لابد أنهم سينتقمون منى لهذا التصرف، ولكن الغريب أنهم انفجروا ضاحكين وتعالت من أفواههم الضيقة تلك الأصوات المزعجة وهم يشيرون بأيديهم نحوى .. إنهم يتحدثون عنى ويدبرون أمرًا ما بشأنى .. فماذا يدبرون؟ اقترب منى أطولهم قامة وأخذ يعابثنى بأداة رفيعة فى يده ولكننى

صرخت في وجهه غضبًا.. قلت له » ابتعد عنى أيها الأحمق فلست مادة للمشاهدة لن أكون فقرة لتسليتك ..إن ابن الأرض لن يكون وسيلة لعبث الآخرين «
كنت أتحدث بانفعال غاضب وأنا أشعر لأول مرة أننى انتصرت لكرامتى ولكن العجيب أنه يضحك.. أى سخافة؟! .. بعد مدة تركونى وذهبوا لمشاهدة حجرة أخرى وكم كنت سعيدًا أنهم رحلوا.. وأكثر سعادة أنى فعلت شيئًا جديدًا .. شيئًا مثيرًا ..رفضت معاملتهم لى بهذه الطريقة بل وقرت أيضا أن أزيد استفزازى لهم وهم راحلون نحو مركبتهم الفضائية العجيبة.. قمت بسبهم!! ..نعم سببتهم وصرخت بصوتى عاليًا لكى يسمعونى .. بالتأكيد عرفوا من لهجتى أنى غاضب وأنى أهاجمهم وأسبهم و سيغضبون ..أعلم أنهم سيغضبون ولا أبالى، ربما تهور أحدهم وقتلنى ولكن ذلك سيجعلنى أسعد .. سيجعلنى أتحرر من هذه الحياة البغيضة .. فليقتلونى لكى أتخلص من وجوههم الغبية لأحفر في تاريخهم علامة مضيئة أرسمها لأننى وبكل فخر .. أنتمى لكوكب الأرض

****

تجمع كل الأولاد فى صفوف منتظمة خلف مشرفى الرحلة وركبوا أتوبيسهم بعد أن أنهوا زيارتهم, وفى الأتوبيس كان أحد الأطفال ينظر من زجاج الأتوبيس في شغف لقرد يتراقص بجنون داخل القفص .. ومن خلفهم أخذت أسوار حديقة الحيوان تبتعد ...وتبتعد... وتبتعد

القصة الثالثة عشرة

الثراثة يحبونه!

بخار كوب الشاى يتصاعد أمامه فيتأمل للسطح الأحمر المسوّد برضا .. يحب الشاى .. ويحب اللحظات الممتعة التى يرتشف فيها الشاى فيغسل أعصابه ويعطر فمه برائحته ومذاق حبيبات السكر على لسانه وفى حلقه ، يزداد شعوره بالرضا فتمتد يده ويرتشف رشفة طويلة لها صوت ممطوط يعقبه تزايد مطرد فى شعوره بالاستمتاع فيصدر صوتًا آخر مرتبط بحركة شفتين تلتصقان وتعاودان الانفراج فى ثلاث مرات متعاقبة .. إنها ساعة الظهيرة بعد أن تناول غداءه ثم - وكما جرت العادة - يشرب الشاى فى مكتبته الصغيرة المتكئة على سور الجامعة ، لم تكن مكتبة واسعة أو كبيرة إنما هى أقرب لكشك خشبى طوله وعرضه متران .. بضعة أرفف خشبية تراصت فوقها الكشاكيل والكراسات ودفاتر التحضير للمدرسين، ودفاتر المحاضرات للطلاب .. على رف آخر بضعة روايات للجيب مما يحبه الطلبة ويقبلون عليه.. ربما بضع صحف أيضًا، وهنا وهناك تتناثر علب الأقلام والمساطر والألوان وشرائط اللصق وغيرها من مئات الأدوات المكتبية، وفى الركن آلة تصوير عتيقة الطراز يجاورها آلة تغليف الكارنيهات .. مكتبة نموذجية برغم صغر حجمها تجمع كل ما يحتاجه الطلاب والأساتذة أيضًا .. ويحرص على تزويدها بكل النواقص حفاظًا على مكانته وسط معركة المنافسة الشرسة مع باقى المكتبات المتراصة على سور الجامعة..

فرغ من شايه فغسل الكوب بزجاجة من الماء وجدها هناك، ثم وضعه ووقف يتثاءب ويتمطى وقد خرج من باب مكتبته ناظرًا للشارع الطويل الذى لاتكف الحركة فيه ليلًا ولانهارًا .. الشارع الذى وقفت فيه أعمدة الإنارة كأنها تراقب السائرين واصطفت محال البقالة والمرطبات وصالونات الحلاقة فى نظام جميل، يقطعه بالطول رصيف وزعت به بعض الشجيرات الصغيرة .. لم تكن هذه الساعة ساعة عمل بالنسبة له فغالبًا ما يفد إليه الطلبة من الثامنة صباحًا حتى الحادية عشرة أو الثانية عشرة ظهرًا ثم يختفون ليعاودوا الظهور بعد العصر حيث يبلغ ذروة نشاطه قبل أن يلملم أوراقه فى العاشرة مساءً... منذ تخرج (حسام) من كلية التجارة دبر له والده مبلغًا من المال لينشأ هذه المكتبة لتكون مشروعه الخاص , فلم يكن والده (الحاج عثمان) الذى يملك مقهى ضخمًا يدر عليه دخلًا لا بأس به يريد لابنه حسام أن يربط حياته وعمله بالمقهى وحياة المقاهى، وعلى كل حال فحسام أيضًا لم يحب هذه الحياة.. وهكذا أصبح حسام صاحب مشروع يغنيه عن سنوات الضياع فى انتظار الوظيفة , على أن نظرته للشارع لم تكن للتأمل فقط، إنه فى الواقع يتابع حركة أفواج الطلاب الداخلين من باب الجامعة والخارجين منه بغير نظام أو نسبة ثابتة.. فتارة يزيدون وتارة ينقصون،

ومرة ينقطع السيل فلا ترى أحدًا.. وأحيانًا يتكدسون على الباب .. ولو ظننت أنه يتسلى بمشاهدة الطلاب فأنت مخطىء.. إنه فى الواقع كان يبحث عنها .. عن رغدة... تذوق الاسم فى فمه فوجد له حلاوة لا تقل عن حلاوة صاحبته.. له مذاق الكارميلا التى يشبه لونها لون عينى رغدة، إن حبه لرغدة – يكاد - يقارب حبه لذاته .. ونظرته لذاته فيها كثير من الافتتان فهو يحب وجهه المستطيل وشعره الأسود الغزير الناعم وعينيه السوداوين .. يحب هذا الوجه الذى يطالعه من المرآة كل يوم ويحب كذلك قامته الطويلة التى تناسبها أى ملابس يشتريها فيشعر بوسامته وأناقته وتزداد ثقته بنفسه .. تسألنى عن رغدة ؟

إنها طالبة فى العام الأول من كلية التجارة ..نفس تخصصه .. تأتى إلى المكتبة مع بعض صديقاتها لشراء كشكول أو قلم أو لتغليف كارنيه فيستغل الفرصة ويتبادل معها بعض العبارات الصغيرة الضاحكة ويتبادلان البسمات الخاطفة وتذهب.. وينتظر على أمل أن يراها فى يوم آخر, وتعددت لقاءاتهما عند المكتبة وخارجها أيضًا.. فى أحد النوادى التى كانا يجلسان فيها بالساعات - بعد أن يغلق مكتبته - ليتبادلا فيها أحاديث طويلة عن الحب والحياة .. عن آمالها وأحلامها .تسأله رغدة وهو يتأمل عينيها العسليتين بافتتان :

- هل تحبنى؟

فيجيبها بلهجة وضع فيها كل شغفه :

- بالطبع

فتسأله بدلال أنثوى مثير:

- هل عرفت قبلى أحدًا ..هل أحببت أخرى؟

- أقسم أنك الأولى..

وكان يكذب ..فحسام يهوى مصادقة الفتيات كما تهوى أنت قراءة القصص ..يستمتع بخداعهن بفخر مغرور .. وتعلو وجهها بسمة غارقة فى غلالة من دمع لا يدرى مصدره ..وتستأذن منه لتعود لأنها متعبة و يعرض عليها أن يوصلها فترفض, ويعود لمنزله على أمل لقاء آخر غدًا ولكنه لاحظ أنها لم تظهر منذ الأمس ! .. ولم يكن يعرف رقم تليفونها ولا يعرف صديقاتها فلم يجد مايفعله غير الانتظار والترقب ومراقبة الطلاب المارين فى الشارع دخولًا وخروجًا من الجامعة، وطال الوقت ولم يجد أحدًا فدخل مكتبته وجلس يتسلى بقراءة رواية ما لا يذكر اسمها ولايهتم بأحداثها.. استغرقه التقليب الشارد حتى سمع الصوت الجميل :

- مساء الخير

لم يكن أذان العصر قد انطلق بعد ولكنه جغرافيا (مساء الخير).. إن هذه المتحدثة تتميز بحس جغرافى رائع!.. رفع عينًا متسائلة نحو الفم الذى أصدر هذه الهدية فوجد وجهًا صغيرًا رقيق الملامح وعيون سوداء أبنوسية لامعة وفم كأنما رسمت ابتسامته فوقه وتم تثبيتها

حتى لاتفارقه أبدًا.. قصيرة القامة تبدو كطفلة..
أعادت النغمة الموسيقية فى تكرار مطرب :
- مساء الخير
وكأنما رفض الرد - فقط - كى يستمتع بمزيد من النغمات ..وأخيرًا وجد لديه القدرة على التحدث :
- مساء الخير
بابتسامتها الرائعة وتغريدها الأخاذ سألته :
- ممكن كشكول محاضرات مائة ورقة؟
ناولها ما تريد فسألته عن سعره وأعطته إياه وهى تشكره، وكادت تنصرف لولا أن انتفض مذعورًا وهو يكاد يتشبث بملابسها ..
- مهلا
بعينين حائرتين نظرت له بتساءل :
فسألها بلهفة :
- ما اسمك؟
- ريم
« الله! .. ريم ..اسم جميل .. لحن موسيقى صغير المقطع ..»
- واسم الكلية ؟
وأجابته :
- أنا طالبة في كلية التجارة
ولما سألها عن فرقتها ردت بتلقائية :
- الفرقة الأولى

ثم سألها بلهفة:

- ستكونين زبونة دائمة أليس كذلك

- بالتأكيد

ورحلت .. ورحلت عيناه خلف خطواتها ولم يجد له قدمين كي يجلس.. بحث عن قلبه فى صدره فلم يجده أيضا! .. وتوالت زيارات ريم للمكتبة وفى كل مرة يتبادلان الأحاديث الضاحكة ويفترقان على أمل لقاء آخر فى الغد .. ولكنه فى هذه المرة كان ذكيًا وتعلم من أخطائه الماضية ، حصل على رقم هاتفها ومن يومها تكلما كثيرًا .. تكلما عن كل شىء وتوطدت علاقتهما وتقابلا فى أماكن كثيرة .. يغلق مكتبته ويذهب إليها ، ولم يعد يذكر عن رغدة شيئًا نسيها تماما ! ..سألته ريم وهى تضع كوب العصير على المائدة الصغيرة :

- هل كانت لك علاقات سابقة؟

فأجابها بالنفى كعادته فعادت تسأله:

- هل تعرف أى بنت غيرى ؟

فقال وهو يسبح في موج عينيها الأسود اللامع :

- إنكِ أول من طرق قلبى

لمح فى عينيها غلالة من دمع لم يعرف لها سببًا، واستأذنته أن تنصرف لأنها تشعر ببعض التعب .. عرض عليها أن يوصلها فرفضت وانصرفت وتركته حائرًا ، لايدرى لماذا يشعر أن بها شىء ما لا يفهمه .. شىء ما تغير لا يعرف كنهه .. ولما وصل منزله طلبها فى التليفون

فلم ترد .. شعر بالقلق..
هل هى مريضة أم تراها نامت؟
لم يجد جوابًا شافيًا فوضع رأسه على الوسادة ونام ولم تأت ريم لموعده فى الصباح ، ولا بعد الظهر .. لم تأتِ باقى اليوم ..ولم تفلح محاولاته للاتصال بها، ومرت ثلاثة أيام بدأ معها يعود لمللله القديم .. يبحث فى الشارع لعله يراها, فلما يأس من ظهورها عاد يبحث فى مجموعات الطلبة، ثم لمعت فى رأسه فكرة
لماذا لا يبحث فى الداخل ؟!
نعم داخل الجامعة نفسها ..إن حرس الجامعة يعرفه معرفة شخصية منذ أن كان طالبًا ولن يمانع دخوله .. وهكذا أغلق مكتبته ودخل.. تجول بين أروقة الجامعة يتصفح كل الوجوه بحثا عن ريم ..فلما مر اليوم دون أن يجدها بحث فى اليوم الثانى عن رغدة !!
إلا أنه لم يجدها كذلك ومن ثم عاد إلى مكتبته وانكب على الرواية التى يبدو أنه لن يكمل قراءتها أبدًا ، وفجأة سمع عزفًا موسيقيًا مرة أخرى :
- مساء الخير
رفع عينيه للوافدة الجديدة فتعجب وتحيّر واندهش واعتراه الذهول عندما عانقت عيناه وجه سمراء لم ير أجمل منها منذ وعت عيناه على ضوء الشمس.. يبدو أنها من أهل الجنوب وكان حدسه صحيحًا..
سألها عن اسمها فأجابته :
- سمرة

اسم على مسمى.. كحيلة العينين ممتلئة قليلا ..لها خفة روح مميزة لأهل منطقتها، تنطلق ضحكتها فى وجهه حاملة معها عبق الجنوب ..عرف منها أنها طالبة بالفرقة الأولى بكلية التجارة .. ولقيها مثلما كان يلاقى ريم ورغدة.. زار معها نفس الأماكن ..سكب فى أذنيها نفس العبارات وسمع معها نفس الأغنيات.. ولكن لسمرة مذاق مختلف ..هكذا قال لنفسه يبدو أنه سيحبها حقا ، وفى كل يوم يعود إلى منزله سعيدًا على وعد بلقاء آخر فى الغد، وفى الغد لقاء سعيد فى كافتيريا كان يقابل فيها رغدة وريم.. وتسأله سمرة بحيرة وقلق :

- هل تحبنى حقا؟

فيجيب بشرود اعتاده :

- بل أعشقك

تتأمل كوب العصير وتسأله :

- هل عرفت أحدًا قبلى؟

فيقسم لها:

- إنك أول أنثى فى حياتى

وتلتمع عيناها بغلالة رقيقة من الدموع لا يدرى لها مصدرًا ..عجيب أمر هؤلاء الفتيات.. دائما نفس الأسئلة ودائمًا عندما يجيبهن يجد نفس الدموع ولايدرى لذلك سببًا .. أخرجت منديلاً مسحت وجهها ثم طلبت الانصراف لأنها متعبة .. عرض عليها أن يوصلها فرفضت.. وهكذا عاد لمنزله وطلبها على التليفون فلم ترد.. لعلها نامت؟

ولم يجد ما يفعله.. فنام ..
كان أول عمل له فى الصباح أن طلبها فى التليفون، فلما سمع صوتها الضاحك المرح ردت عليه روحه مرة أخرى.. سألها:
- أين كنت؟
فقالت له بضحكتها الطازجة دائمًا :
- كنت نائمة
عاد يسألها بلهفة من اعتاد عليها :
- سأقابلك اليوم بالتأكيد؟
ردت بعد قليل بنغمتها الضاحكة الممزوجة بدلال يعشقه :
- طبعا فى نفس المكان الساعة الخامسة عصرًا ..إياك أن تتأخر لأننى أعددت لك مفاجأة جميلة
فيجيبها بافتتان حقيقى :
- لاتوجد مفاجأة أجمل من لقائك ياسمرة
- « تسلم يا روحى»
ثم تعلو ضحكتها العذبة الواثقة التى خطفت قلبه قبل أن تغلق السماعة .. شعر بنفسه يحلق فى سماء الغرفة ثم يهبط على السرير .. يريد أن يخترق الأفق فيجذب حبال الوقت لتأتى الساعة الخامسة، أو يصل إلى ساعة الزمن فيديرعقرب الساعات للأمام فيقفز به ثمانى ساعات حتى يأتى موعدها ..ولكنه لم يستطع إلا أن يرتدى ملابسه بعناية ويتشاغل بالبيع فى مكتبته حتى جاء الموعد الحبيب ، أغلق مكتبته وذهب للمنزل فغير ملابسه وشرب شايًا ..كلما كان سعيدًا يشرب الشاى..

تعطّر وصفف شعره بسعادة ونزل من البيت .. ركب تاكسي على سبيل الوجاهة.. وتوقف أمام النادى ودخل مختالًا ..نظر ذات اليمين وذات اليسار يبحث عنها ..عن سمرة..وفى التفاتته السريعة وجد المفاجأة ..بل ثلاث مفاجآت.. كانت الصديقات الثلاث سمرة وريم ورغدة على مائدة واحدة ينظرن إليه وتتعالى منهن الضحكات الساخرة! ..وقف مكانه لا يدرى أين يذهب بينما صدى ضحكاتهن يدوى كالرعد فى أذنيه حتى سمع عامل الكافيتريا يسأله :

- «تشرب حاجة يا أستاذ ؟!»

*****

القصة الرابعة عشرة

نظرة خاطئة فى توقيت خاطىء

خرج من منزله كما يفعل كل يوم.. يعدل من وضع قدرة الفول التى اسودّ جانباها وتبدو مثل كومة غير واضحة المعالم، سد فمها بقطعة من قماش بجانبها فتحة تخرج منها يد المغرفة.. ألقى نظرة على حماره وقال لنفسه مسكين هذا الحمار يتعب كثيرًا ..هو يعلم جيدًا أن مهنته متعبة.. شد عربة الكارو على الحمار وانطلق يحدوه الأمل فى رزق جديد ..الشارع مازال نائمًا لم يستيقظ بعد، اللون الوردى يصبغ الأشياء بطابع مبهم لم يتخلص من غموض الليل ولم تكشفه صراحة النهار، إنه وقت الدجى حيث الموجودات فى أحلى لحظات الحلم لم تستيقظ ولكنها تتأهب لذلك.. أخرج علبة سجائره والتقط واحدة فركها بين أصابعه وأشعلها ثم سحب نفسًا عميقًا نفثه فى الهواء، والحمار يمشى به بخطوات رتيبة اعتادها لأن صاحبه لا يستحثه فتعود على مشيته البطيئة ذات الطابع الواحد المنتظم حتى يكاد يكون له نغم موسيقى ثابت بإيقاع مثل دقات الطبلة ..سرح فى أحلامه البسيطة.. إنه يحلم أن يتزوج ..حلم يبدو بسيطًا ولكنه باهظ الثمن.. يريد أن يتزوج (دلال) جارته التى تسكن فى العشة المجاورة له تمامًا وتعمل فى (تدميس) الفول مع أبيها ، ينقسم عالم الفول الى قسمين أحدهما هو الذى يقوم بالتدميس فى الفرن ثم يأتى دور التسويق ، الخطوة التى تتم عن طريق الباعة المتجولين (السرّيحة) ثم يقتسمان الربح فى النهاية، ودلال مثله فى نفس سنه جمعت بينهما مهنة واحدة

واهتمامات واحدة وطفولة واحدة ومصير واحد ..ما أروعها وقد انتفش شعرها وصبغه العرق مع عنقها وهى تجلس أمام الفرن ووهج النار ينعكس على وجهها فيزيده نضارة.. كان مفتتنًا بها لذا تحدث مع أبيها بالفعل ولكن أباها اشترط عليه مهرًا كبيرًا فى مقابل أنه لن يكون هناك شقة, سيتزوج فى نفس البيت الذى يعيش فيه مع أهله ..نفس العشة ..سيخصص لهما غرفة، ولكن كيف له أن يدبر هذا المبلغ الفادح؟ إنه يدخر كل ما تقع عليه يده ويضعه فى جمعية تدبرها له أمه ومازال الباقى كثيرًا.. كثيرًا جدًا.. ولكنه لم ييأس، إن إنفاقه معدوم تقريبًا - فيما عدا السجائر - هو تقريبًا لا ينفق شيئًا.. ولكنه سيصبر من أجل دلال .. ولو استلزم الأمر أن يكف عن التدخين سيفعل من أجل أن يجمع مهرها .. يعيش فى بيت من صفيح فى منطقة يغلب عليها هذا الطابع من البيوت الخشبية المصنوعة من الخشب القديم وألواح (الحُبيبي) أو البيوت التى تمزج بين الحديد والخشب، أو الحديدية المصنوعة من الصفيح وحديد القطارات القديمة (عزبة الصفيح) ولو أنك تستيقظ كل يوم مبكرًا لرأيت نفس المشهد لهذا الرجل فوق عربة الكارو يمشى بحماره بخطواته المنتظمة الهادئة البطيئة، يعبر الحوارى والأزقة والشوارع وكلما لمح شباكًا مفتوحًا أو بابًا وراءه أحدهم مد يده بجواره يتحسس جرسه النحاسي وهزه هزات متتالية تغنيه عن الصراخ مناديا على بضاعته

حينها تتفتح الأبواب والنوافذ وتطل منها السيدات وتبدأ العملات الورقية والمعدنية في الظهور ..هل رأيته من قبل؟...هل رأيت عربته و حماره الهزيل؟

ألا تعرف اسمه ؟ ..إن اسمه (شعبان) ..هو قصير نوعًا ما ..فقير مثل الهنود، يرتدى بنطالًا من الجينز اسودّ لونه منذ سنين طويلة لايعرف عددها ..وفوقه (فانلة) داخلية كانت بيضاء يوما ما، عليها صديرى مفتوح له نفس لون بنطاله الأسود المغبر، أما عن لون شعبان فأنا لا أعرفه .. ولا أعتقد أن أحدًا يعرف لونه يقينًا ..هو نفسه لايعرفه.. فوجهه له نفس اللون المغبر الذى اتخذته ملابسه، وإن كنت استنتجت أنه أسمر فأنت مخطئ.. فارق شاسع بين السمار والغبرة الناتحة عن الاتساخ و(الصماد) المتكوم والدخان.. إنه - والله أعلم - كان قمحيًا ربما بسبب لون عينيه البنيتين.. أما شعره فكتلة مختلطة مبهمة الملامح لا لون لها .. بائع فول متجول يسير يوميًا فى خط سيره الطويل ..تعال معى لنراقبه وهو يتبختر بحماره وعربته إلى داخل هذا الحى الشعبى، مختارًا وقت الصباح الباكر حيث يستعد الناس للإفطار, وينظر للأعلى وقد أشرقت الشمس فأضاءت كل ماحوله فيجد رجلًا فى الطابق الأول يقف فى (البلكونة) يرتدى بيجامة مخططة بالطول خضراء اللون .. وجهه مستدير وله شارب سميك تحت أنف غليظ.. لمح فى يده طرف السيجارة المشتعل فقال فى نفسه: مستيقظ مبكرا؟

لا أظن .. لابد أنه واحد من هؤلاء المترفين الذين اعتادوا أن يسهروا طوال الليل ثم يفطرون صباحًا ويذهبون للنوم بعد ذلك، خالى البال ليس له أية مشكلات .. يجد من ينفق عليه أو هو متزوج ولديه زوجة ترتب له حاجياته وتلبى طلباته، ربما يملك ميراثًا ينفق منه أو هو موظف حكومى لديه مرتب محترم ثابت آخر الشهر يكفى احتياجاته.. يستطيع أن يقدم طلب إجازة فى أى وقت ويستمتع بوقته ويسهر الليل كله وهو يعلم أنه لن يذهب للعمل مبكرًا مثلى، وفى نهاية الشهر يصرف مرتبه ..حياة سهلة يجلس على مكتب نهارًا ثم يعود للمنزل لينام ولا يضطر للتجول طوال النهار يحمل قدرة الفول الملتهبة بذراعيه فيكتويان بحرارتها .. لديه حمام نظيف ومياه دائمة لاتنقطع ..يستحم أكثر من مرة فى اليوم الواحد ..ياله من محظوظ !

****

وقف جمال فى البلكونة يدخن سيجارة .. عندما لمح بائع الفول هناك فى الأسفل، لا يعرف اسمه فهم كثيرون ..ولا شكله تحديدًا فجميعهم يتشابهون.. شرد جمال قليلًا وهو يسأل نفسه ما الحل فى تلك الأزمات التى تلاحقه فى حياته ولا يبدو أن لها مخرجا؟
لقد سأم حياته ومشاكلها التى لا تنتهى .. وكلما فكر فى حل لها وجد أنه لايصلح حتى أدركه اليأس .. منذ أن عمل فى مصلحة البريد ومديره فى العمل يضطهده

ويطالب بنقله لأن له ابن أخت يريد أن ياتى به بدلًا منه والمصلحة لا تعانى عجزًا فما الحل؟ الحل أن يرحل جمال .. ينقل لفرع آخر ، المشكلة أن الفرع الآخر فى بنى سويف مما يعنى المزيد من المسافة وتذاكر قطار ومواصلات داخلية، ومصاريف أكثر وإرهاق مادى ومعنوى وجسدى .. إنه اعتاد على العمل فى مكتبه هذا ولايريد أن ينتقل منه ..لكن إسماعيل بيه - المدير - مصرٌ إصرارًا كبيرًا ، وهو يرفض النقل فما كان من المدير المجرم إلا أن دبر مع المحاسب المتواطئ اختلاسًا من عهدته يقدر بخمسين ألف جنيه، ومطلوب منه تسويته قبل آخر الشهر وإلا فالسجن والفضيحة والفصل من الوظيفة ، وإذا ساوى المبلغ فلا أقل من نقله ! أى أنه خاسر فى كل الحالات.. لم يجد وسيلة لتدبير المبلغ إلا بيع أثاث البيت ولم يتبق على تمام المبلغ غير خمسمائة جنيه فقط.. ولكنه لا يملك مايبيعه ..حتى ملابسه غير صالحة للبيع ، زوجته حينما قال لها ذلك ووجدته يبيع أثاث البيت غضبت ورحلت لبيت أبيها وتطلب الطلاق رافضة أن تساعده في محنته وهى تقسم أنه اختلس المبلغ فقط ليتزوج سهام زميلته فى العمل والتى كان يحبها قبل أن يتزوج!.. بالأمس رمى أحد السكان شيئًا ما فى الماسورة فانسدت وانقطعت المياه عن الحمام ولم يتم إصلاحها حتى الآن، يريد أن يغسل وجهه فلا يستطيع .. أراد أن يعد كوبًا من الشاى فوجد أنبوبة الغاز فارغة ولم يستطع شراء أخرى

فهو لا يملك مليمًا ..كل المبلغ الذى اقترضه وثمن ما باعه سدده للمصلحة أولًا بأول نظير العهدة المفقودة واستلم بها إيصالات.. حتى صاحب الشقة يريد أن يطرده منها لأنه لم يدفع الإيجار هذا الشهر ..شهر واحد فقط ولكن الرجل لا يريد أن يصبر, كل الظروف ضده ..كل المصائب تهبط متتالية فلايدرى ماذا يفعل ..لا يعرف أحدًا ليقترض منه فكل معارفه اقترض منهم ولم يكتمل المبلغ بعد..بقيت خمسمائة جنيه فماذا يفعل ؟ ضاق به الحال حتى أنه جائع منذ الأمس ولا يملك ثمن الإفطار .....

شعبان مازال واقفًا يدق جرسه ..وإن لاحظ أن الرجل فى البلكونة دخل شقته فقال فى نفسه ربما ذهب لينام أو ...أو أن زوجته نادت عليه.. وتبسم فى خبث للفكرة الأخيرة ! ولكنه فوجئ بعد قليل به متجهًا نحوه فابتسم شعبان بلهفة.. «إنه جاء ليشترى منى فولًا للافطار.. ربما يشترى بخمس جنيهات فهو يبدو بدينًا! .. أذكر فى أحد الأيام أن زبونًا بدينًا مثله اشترى منى بعشرة جنيهات مرةً واحدة ..وكان موظفًا.. فهؤلاء الموظفين الأثرياء يأكلون كثيرًا !»

وتأهب وفرك يديه فرحًا شاكرًا الفتاح العليم الرزاق الكريم، وبعد قليل بادره جمال قائلاً فى لهجة طرب لها شعبان كثيرًا :

- السلام عليكم يا «معلم»

سعد شعبان لأنه ومنذ مولده لم يحدثه أحد بهذا الاحترام أو يناديه بلقب (معلم) التى بدت فى أذنه نغمة موسيقية رائعة الوقع وفى لهفة جشعة غطى على نبراتها الفرح رد التحية :

- وعليكم السلام أمرك يا سعادة البيه

ولم يكن ما قاله جمال كثيرًا:

- ممكن تغرف لى بجنيه فول وتأخذ ثمنه بعد يومين !!

وانطلقت صيحة مجلجة من حمار شعبان الذى لم يستطع أن يقف أكثر من ذلك وأخذ يتمرغ في الأرض.. ويتمرغ ...

*****

القصة الخامسة عشرة

طـــاووس بلا ريش

في يوم لا يختلف كثيرًا عن باقى أيام الأسبوع.. ورقة سقطت من النتيجة وجاء غيرها.. استيقظ صباحًا بكسل سائم ..نظر إلى سقف الغرفة الضيقة بخواء ..رنات الهاتف تنطلق في نغم متصاعد يزعجه أيما إزعاج، إنه يذكره بأنه يجب أن ينهض.. يجب أن يرتدى ملابسه يجب أن يعمل.. يجب أن يعيش .. مازالت دقات المنبه تتعالى تزعج حتى أحلامه .. هرب من الحلم واستيقظ فضغط زر الهاتف ليتوقف الصوت المثير للأعصاب مثل طفل صغير أطعمته قطعة حلوى..

ينهض متثاقلًا ويرتدى ثيابه بغير عجل.. يغتسل بلا عناية ..يمشط الشعيرات المتناثرة حول رأسه بلا اهتمام.. يلقى نظرة لامبالية على ملامحه الدقيقة، على وجهه الأسمر وشعره الفاحم السواد وعينيه الواسعتين.. ملامح هندية وسيمة.. يغلق باب المنزل بإهمال ثم يزحف على السلم بطيئًا بلا اكتراث, ولم يتناول شيئًا كعادته في الصباح فهو يفضل أن يتناول إفطاره في العمل.. إن هى إلا بعض شطائر الطعمية والفول مع بعض الفلفل الحار - كم يعشقه - ثم كوب من الحبر الأسود يضمن له أن يسكت صوت المعدة حتى العصر، كان أحمد سليم شابًا عزبًا يعيش بمفرده ..لم يتزوج ولم يفكر فى الزواج.. يرى أن الأنثى - أي أنثى - لا تستحق مجرد النظر إليها ..لذا فهو يأبى الانزلاق بالتفكير - ولو حلمًا -في هذا الأمر ..

معظم من عرفهن عاملات وهو لا يطيق المرأة العاملة، وأعلن رأيه ثابتًا كالجبل الشامخ .. لن يرتبط أبدًا ولو فرض وحدث هذا الزواج فلن تكون عاملة على الإطلاق. يرى أن المرأة العاملة تعطى لعملها أضعاف ما تعطى لزوجها من اهتمام ورعاية وحنان وحب، وهو يريد أن يستأثر بكل ذلك ويستمتع به وحده على مهل .. ويرى كذلك أن الفتاة التي تفكر - مجرد تفكير- في العمل هى على أتم استعداد أن تبيع أي شيء مقابل عملها اللعين ..حتى زوجها، وجد نفسه على ناصية الطريق الضيق بين عمارته حيث يسكن وبين حارة مجاورة طالما لعب بها صغيرًا وجلس على مقهاها شابًا يتبادل السجائر مع أصدقائه ويتراهنون على الجنيهات القليلة التي ادخروها من المصروف على بعض أكواب الشاي أو الحلبة، وكان موضوع الرهان دائمًا هو عشرة (طاولة) أو دور (دومينة) كم عشق أنفاس دخان السجائر - الشيشة أحيانًا- وكم أحب مذاق الشاي، وكم طرب لصوت ضربات أحجار الدومينو حين يضربها بعنف بطريقة توحى بالتمكن والاحتراف, ذلك يعنى أنه انتصر وأنه لن يدفع ثمن (المشاريب).. كذلك يضمن أنه سيدخر تلك الجنيهات القليلة ليوم آخر ومتعة أخرى، ألقى نظرة يعتصرها الحنين لذاك المقهى فوجده خاويًا كعادته في مثل ذلك الوقت من النهار، ولكنه شعر أنه بعد أن انفض عنه الأصدقاء تحول لصحراء مقفرة بادية مهجورة بلا أنيس.. كأن الذكريات كانت

أشجارًا نبتت هنا ثم أذبلها النسيان ..لا يذكر بالتحديد متى انفرط عقد الشلة فقد كانوا نادرًا ما يفترقون، ولكن يعتقد أنه بعد وفاة والدته وبعد أن أصبح يتيم الأبوين زهد الحياة بأسرها، لا يريد أن يرى أحدًا أو يراه أحد .. في الواقع كان هو الذى تركهم لا هم من تركوه ، مازال الطريق يتقاذفه وكذلك أمواج الذكريات ..هناء ذات العشرين ربيعًا ..في مثل سنه كانت .. توأما لروحه.. عيناها العسليتان وشعرها الذهبى ووجهها الأبيض الجميل ملامح حفرت في ذاكرته للأبد، وكم جمعت بينهما لحظات بريئة في حب من نوع نادر .. طفولة مغموسة في اللهو وشباب ممتزج بالعاطفة ..ابنة الجيران الصغيرة التي فتحت جفنيه وأرته الدنيا في عينيها الصغيرتين ولم ير أنثى غيرها، كانت هناء سعيدة معه ولكنها كانت دائمًا ما تلح عليه أن يبحث عن عمل.. أى عمل ..وكان يرفض ويزداد إلحاحها فيزيد رفضه ..ألمحت له مرارًا أنها لا تحب الرجل الذى يعتمد على شريكة حياته وأنه لكى يكون جديرًا بها فلا بد له من عمل يتكسب منه ويحقق ذاته.. لكى يستطيع أن يتقدم لطلب يدها للزواج لابد أن يكون جديرًا بها ..لم يهتم لتوسلاتها ..لم يعتن بدموعها ..حتى عندما أخبرته أنها تقدمت لوظيفة وتنتظر الالتحاق بها قريبًا، يتذكر عباراتها التي كانت تتوسل بها إليه ولم يبالى:

«أحمد لابد أن تفعل شيئًا»

لم يشأ أن يعترف لنفسه بصدق حديثها وقوة منطقها، بل ألقى في وجهها قذائفه الملتهبة واتهمها بالخيانة وتركها وانصرف!

بضع أسابيع مرت لم يرها أو يتصل بها مطلقا ..كان ينتظر منها أن تحاول الاتصال به..سيطرت عليه كبرياؤه والعزة بالاثم

« إنها لابد عائدة فهى لن تطيق الابتعاد عنى !»..

وزلزله الخبر الصادم ..لقد التحقت بالوظيفة التي حدثته عنها.. ولكن ما هدم صرح غروره حقا أنها خطبت لشاب تعرفته في عملها الجديد ثم انتقلت مع أسرتها للسكنى بالقاهرة ..إذن فقد فعلتها والتحقت بالعمل.. ثم خطبت وتريد أن تتزوج ! كيف فعلت ذلك؟ كيف تتركه يلوك مرارة الفشل واليأس؟ كيف تجرؤ ؟ غرق في بحار الحزن وذكريات خيانتها.. استنشق دفعات من هواء الصبح يطفئ به جوفه الملتهب .. ياللوعة الذكريات الحبيبة ..جر قدميه نحو موقف السيارات المتجه من بنها إلى القاهرة حيث يعمل واستقل إحدها، تجلس بجواره أنثى فاتنة لم يلق لها بالًا وهو يقلب كتاب ذكرياته.. نظر من النافذة وشرد من جديد.. تركته هناء حزينًا وتركه أصدقاؤه بعد أن ملهم وملوا منه منهم .. بل رفض أن يلقاهم أكثر من مرة رغم إلحاحهم، التحق معظمهم بوظائف - يراها هو- دون مستواه ولا تليق به، وسافر آخرون إلى الخارج وبقى وحده ..عنكبوتًا كئيبًا متفردًا في بيت مهجور

أضنته الوحدة، ولم تكفه حفنة الجنيهات التي تبقت من مدخرات أبيه القليلة جدًا، فاتخذ قراره المصيرى بالبحث عن عمل لعله يقتل وحدته ويتخلص من ذكرياته الحزينة، أو يهرب من شبح الفشل الذى يلاحقه في أركان البيت ثم يطارده في الشارع حين يقرر - أحيانًا - أن ينزل للشارع كى يتنسم هواء الليل أو يجلس على المقهى يراقب المارة ويحتسى شايًا لا يحس له طعما فيتركه حتى يبرد، كان المكان يرفضه وهو يرفض المكان .. كانوا هنا ثم رحلوا فعلام البقاء؟ ويترك المقهى ويسير بلا هدى حتى تلفظه كل الطرقات فيعود كئيبًا ويتقوقع على نفسه منزويًا في حجرته الحقيرة لا ينتظر يومًا جديدًا، حاول مرارًا أن يبدأ من جديد ..حاول أن يكتب شعرًا لكنه لم يكمل؛ فقد كان الشعر إذا تسلط عليه يسحق ماتبقى من حصون صبره ..يدكها ... يقطر حزنًا وألمًا، كان كل حرف يكتبه يذكره بما حدث فقرر أن يتوقف.. بل قرر أيضًا أن يثور على كل شيء ويخرج بحثًا عن عمل، خرج يومها لنفس موقف السيارات واستقل سيارة.. ربما تكون نفس السيارة التي يستقلها الآن.. وتوجه لمكتب ذلك المحامي الشهير .. صديق والده ..فكم أخبره أبوه أن (الأستاذ) صديقه الحميم، ولما كان أحمد حاصلًا على ليسانس الحقوق توجه لذلك المحامي، دخل المكتب متوترًا فوجد تلك السكرتيرة الحسناء تبتسم له ..توتر كعادته كلما أقبل على شيء مصيري

يتعلق بمستقبله.. شيء يتعلق بنظرة الآخرين له وتقييمهم.. سألها باضطراب:

- ممكن أقابل الأستاذ ؟

أجابته وفى عينيها التمعت نظرة لم يعرف معناها :

- لحظة من فضلك؟

وسُمح له بالدخول.. حدثه عن نفسه وعن والده المرحوم فأثنى المحامى الشهير على والده وعرض عليه أن يتدرب في مكتبه - بلا أجر طبعًا - ولكنه تراجع بعدما نظر إلى هيئته الزرية وثيابه المهلهلة فوافق تكرمًا على إعطائه بضع جنيهات كمرتب في آخر الشهر ..تكفى أجرة المواصلات ويدخر منها بالكاد ما يقيم أوده..

« وصلنا يا أستاذ»

قطع بها السائق فيض الذكريات بنبرة حادة لاعنًا الأيام التي جعلته سائقا ليقابل أولئك -الأفندية- الذين لاهم لهم في الحياة إلا العبث مع الفتيات..!

انتبه لأن السيارة متوقفة والركاب غادروها وهو مازال غارقًا فى بحيرة شروده، نزل من السيارة متثاقلًا حتى وصل لمكتب المحامى الشهير حيث يعمل، ألقى تحية الصباح على السكرتيرة ..اسمها دعاء.. دعاء الناحلة الرقيقة سوداء العينين جميلة الملامح بريئتها ..لكم حاولت أن تستميله إليها بلا جدوى، يشعر بمحاولاتها في التقرب إليه والتي تبدو في نظره غاية في السذاجة.. كم عاملته بلطف وكم حادثته بحنان؟ كانت نبضات

العاطفة تشع من ثناياها فيزداد بعدًا كلما اقتربت ويحبس بسد الصمت أنهارًا من الكلمات توشك أن تنطلق من فمها فتغرقه، بل أنه أحيانًا يعاملها بجفاء ممزوج بغرور الواثق وقسوة الزاهد، لكنها لم تيأس.. يلاحظ أنها لم تيأس .. وكل ذلك يزيده قوة وفخرًا وسعادة، خاصة كلما ألقى عليها تحية الصباح ولاحظ إشراق وجهها وابتسامتها العذبة .. يعترف لنفسه أن ابتسامتها عذبة، وبرغم هذا يرفض حبها بكل إصرار.. ويطلب منها بكل جفاء أن تعطيه ملفًا لقضية ما أو تكتب مستندًا لأحد العملاء ، أو يتساءل عن ملف قضية لم تكتمل بعد أو حتى يسأل عن الأستاذ ..برغم علمه أنه لا يأتى إلى المكتب إلا بعد ساعتين كاملتين.. يهرب منها كلما حاولت أن تجد إليه سبيلا , ولم يعلم أحمد في حقيقة الأمر لماذا يرفض حبها الواضح بكل هذا الإصرار؟ هل لأنها امرأة عاملة وهو لا يبغض في حياته أحدًا بقدر ما يبغض المرأة العاملة ؟ أم لأنها تذكره بهناء حبه القديم وذكرى فشله وجرحه الذى يأبى الشفاء ويأباه النسيان؟ أم لكلا الأمرين معا؟

وفى كل مرة ينجح ..وتذوب الابتسامة على وجه دعاء لتغرق في العمل, وبينما هما منهمكان أحس بوجود جميل نبهه إليه رنين أخاذ عندما غردت البلابل:

« صباح الخير»

أجمل صباح الخير سمعها في حياته .. سيمفونية رائعة من ألحان الصباح الممزوجة بالندى العطرى، رفع عينيه

ورفع وجهه ورفع أذنيه!.. بل رفع جسده كله ..وبلا شعور قام واقفًا وقد انفتح فمه ببلاهة وهو يحدق في ذلك الوجود ..وجود جميل بعبير أخاذ يحمل وجه أنثى جلّ من سواها.. كيف لذلك الوجه الصغير أن يحمل كل هذه الروعة ؟! يحيط به شلال كستنائى يحتضن وجهها في شوق الحبيب إلى الحبيب .. أما العيون العسلية فتأسر العالم كله داخلها ..والعجيب أنه راضٍ بهذا الأسر سعيد به، مرت لحظات خيل إليه فيها أن وجه دعاء تموج في غضب واشتعلت بها نار الغيرة، وأخيرا لما طال الصمت استطاع أن يقنع ساقيه أن تنثنى وجلس على الكرسى.. واستطاع أن يقنع لسانه بالحديث وإن لم يستطع أن يأمر قلبه أن يكف عن الخفقان.. نبرات الصوت المتهدجة تتساءل في لهفة:

- أية خدمة يا آنسة؟

-اسمى مها

يا إله الكون.. أى نغم موسيقى يحمله الاسم وصاحبته تلك القادمة من أساطير اليونان ..حيث يركض هرقل هربًا من الهة الاوليمب!.. مها ..اسم جميل شجى الأثر.. عذب الوقع رقيق النغم.. لعلها أتت في قضية تطلب من مكتب المحاماة أن يترافع فيها، وحمد الله أنه يعمل في هذا المكتب لدى الأستاذ الشهير الذى غطت شهرته القاهرة

وتعدتها لبعض المحافظات المجاورة أيضا، لسوف يسعده أن يكلفه الأستاذ بتولى هذه القضية ولسوف يهتم بها كل الاهتمام ..سيهتم بها كما لم يهتم بأي قضية أخرى .. كان أحمد يشعر أنها قضية عمره وسوف يقترب من مها أكثر، ويطلب منها لقاء تلو لقاء لبحث سير القضية التي لم يكن ينوى أن تنتهى أبدًا ! ..وكم يتمنى ألا تنتهى.. سوف يستمتع بالقرب منها ويرشف حديثها وسوف ينهل من ينبوع وجهها الشيق ..

ولكن.. هل ستقبل الزواج منه ؟ ..إنها ستبدو فاتنة في ثوب الزفاف الأبيض.. هل هي من سكان القاهرة ؟ وهل ستقبل أن تسكن معه في حارته الضيقة في بنها أم سيضطر إلى الانتقال للقاهرة من أجلها ؟ إنه مستعد أن يفعل أى شى من أجل هذا الوجه الجميل والصوت العذب وال.....

«لقد جئت لأبحث عن عمل»

سددتها مها خنجرًا لقلب أحلامه الوردية فانهارت الصخور فوق رأسه وتهدم الجبل ..تبحث عن عمل.. إذن فهى تريد أن تكون امرأة عاملة تعطى عملها كل اهتمامها وحنانها وصوتها العذب ..خيل إليه أن غرفة المكتب تضيق به ويخفت نورها، وخيل إليه أنه يلمح

الدماء تعود إلى وجه دعاء وعلى ركن شفتيها شبح ابتسامة لا يدرى أهى ابتسامة انتصار أم سخرية أم تشفٍ ؟ كانت دعاء تقول لمها أن المكتب لا يحتاج إلى موظفين جدد في الوقت الراهن .. وليته يحتاج ! ..تركهما تثرثران وعاد يغرق في أفكاره السوداء إلى أن أيقظه صوت دعاء تقول في حنان :

- هل أحضر لك كوبًا من الشاي؟

نظر إليها لحظة في شرود فرددتها للمرة الثانية ولكنه كان قد اتخذ قرارًا خطيرًا وكعادته في اندفاعه المفاجئ باغتها قائلًا :

- دعاء... هل تقبلين بالزواج منى؟

تلوّن وجه دعاء بكل ألوان الطيف ثم أدارت وجهها للناحية الأخرى وهى تقول في خفوت:

- لا طبعًا !

سمع حينها ضحكات متقطعة في الشارع لطفل يلهو مع أصدقائه .

*****

القصة السادسة عشرة

رســـــــالة

الضوضاء اليومية تخترق ستار النوم، همسات العصافير التى تذكرت فجأة أن شباك غرفة نومه مكانًا مثاليًا لمناقشة مشاكلها الحياتية!.. تنهد بعمق وهو يحاول على الضوء الخافت القادم من الشارع أن يتلمس موضع هاتفه الذى لا يذكر أين وضعه بالأمس، يقلب يده يمنة ويسرة حتى اصطدمت أخيرًا بالجسم الصلب .. الشاشة الباردة التى تعده أن يظل على اتصال بالعالم.. بوابة الأسرار وكهف المفاجآت ..فتح هاتفه وجرى بلهفة نحو البريد الإليكترونى الذى يربطه بها ، فتحه بشغف عساه يجد منها رسالة تطفئ ظمأ شوقه إليها.. انتظر للحظات ريثما يفتح التطبيق ولكن الأمر طال.. شعر بالملل فترك الهاتف رغمًا عنه ونهض يترنح حتى وصل إلى باب ثلاجته الصغيرة ..تناول بيده زجاجة تكاثفت القطرات على سطحها فأعطتها مظهرًا مغريًا بالشرب ،فتحها وجرع ربعها دفعة واحدة ثم عاد وقد انعشه الماء فأيقظ حواسه ..عاد يفتح تليفونه فوجد البريد الالكترونى استجاب أخيرًا لالتماسه بعد طول عناء.. ليس هذا فحسب ولكنه يخبئ له مفاجأة أيضا العلامة الزرقاء الحبيبة ..دليل الخير القادم من وراء البحار.. علامة السعادة التى تدل على رسالة جديدة لم تقرأ.. رسالة منها ..فتح الرسالة متلهفًا ولكنها لم تفتح ! حاول مرة وثانية ومرات بلا فائدة.. أغلق هاتفه وفتحه عدة مرات بلا جدوى ، أغلق الراوتر ثم فتحه بلا أمل ..كاد يمسك بالتليفون فيحطمه فوق الأرضية الصلبة

لولا أنه يعرف أهمية الرسالة التى يحويها ،والتفت نحو جهاز الكمبيوتر وقد هداه تفكيره أن يفتح بريده الالكترونى على الكمبيوتر مستغنيًا عن التليفون اللعين .. داعب زر التشغيل بيده فاستيقظت الشاشة السوداء بلون أزرق مرحب يعده بالمعرفة .. لحظات ويفتح الكمبيوتر عالمه الشيق، ولكن اللحظات طالت وامتدت لدقائق والدائرة فى منتصف الشاشة مازالت على هيئتها إلى أن فاض به الكيل فضغط زر التشغيل مرة أخرى بعصبية لتعود الشاشة السوداء.. تنهد بعمق مداعبًا زر التشغيل بلطف وكأنه يعتذر له إلا أن الكمبيوتر رفض اعتذاره ..وانطلقت عدادات الأرقام السريعة على شاشة زرقاء تعلن بكل وضوح عن سقوط النظام (نظام التشغيل)! اللعنة على هذا الحظ السئ.. عاد لتليفونه ثانية محاولًا كسب وده لعله يستجيب ،ولكنه سمع النغمة التى يكرهها والتى تعلن عن نفاد طاقة البطارية عن آخرها تمهيدًا للإغلاق ..كل أجهزته تتآمر عليه ..لماذا نسي أن يشحن هاتفه؟ أى غباء ! .. بحث حوله عن الشاحن فلم يجده فكر قليلًا لابد أنه نسيه فى مكان ما كعادته، وخرج من الغرفة إلى التى تجاورها ثم قلب كل أركان البيت دون أن يجد الشاحن، حتى أدركه اليأس أن يقرأ رسالتها ..وبينما يبحث عن شاحن التليفون ويفتش تحت المنضدة وكراسيها وجده ممدًا على الأرض يخبئ نصفه تحت سجادة الصالة.. سحبه برفق

حتى لاينقطع وأوصله بالكهرباء ثم أوصله بتليفونه آملا فى عودة البطارية للحياة ..وقبل أن تضئ الشاشة ويجرى المؤشر الأخضر لأعلى انقطع التيار ! ..كاد يضرب رأسه فى الحائط غضبًا من كل هذا (النحس) الذى يلازمه، تنهد بلا أمل ثم خرج للشرفة يتطلع إلى الشارع الذى استيقظ للتو، أين سيجد من يصلح الكمبيوتر الآن؟ كل محال صيانة الأجهزة مغلقة، ولكن.. ربما وجد أحد مقاهى الإنترنت ممن يسهرون الليل كله مازال مفتوحًا، انتعش قليلًا بنسمات الأمل ، وهكذا لبس ماوجده أمامه ونثر على وجهه رشتين من الماء ثم ضرب الفرشاة فى شعره و وضع تليفونه فى جيبه وحافظة النقود فى جيبه الخلفى وهبط السلم فى خمسة قفزات سريعة ليجد نفسه بعدها يصافح الشارع ، يمم يمينًا فيسارًا حتى خرج للشارع العمومى.. لمح مقهى الإنترنت مغلقًا أبوابه فاستمر بالمشى.. لمح واحدًا آخر يستعد للإغلاق فأسرع خطاه لعله يلحق به ..خطوة فخطوتين ..كاد يعدو فى الشارع حتى تدركه والساتر الحديدى لم يعانق الأرض بعد

حكى له حكاية ملفقة عن بريد إليكترونى هام ينتظره من أخته المريضة التى ...الخ وهكذا أقنع صاحب المقهى أن يمهله خمس دقائق.. خمس دقائق فقط ليفتح بريده ويقرأ الرسالة ويرحل.. تنهد الرجل بضيق

ثم قال له بلهجة ملول:
-تفضل يا أستاذ.. سأذهب للمحل المجاور لأشترى علبة سجائر وأرجو ألا تتأخر
كاد يقبله فرحًا وهو يجلس على أقرب الكراسي له أمام أول جهاز صادفه ويضغط زر التشغيل وينتظر ..ولكن لم يحدث شئ!.. ترى أين الخطأ؟ تلفت حوله فوجد مفتاح الكهرباء فى وضع التشغيل ماذا إذن؟.. وفجأة انتبه ..تذكر أن مقهى الإنترنت فى نفس صف البناية التى يقيم فيها، أى أن الكهرباء مقطوعة هنا كذلك ! نهض مسرعًا عابرًا الطريق.. غير مبال بصياح صاحب المقهى وهو يناديه متعجبًا من انصرافه بهذه الطريقة، التزم هذه المرة بالناحية المقابلة عساه يهرب من مشكلة انقطاع التيار..عساه يهرب من لعنة الحظ السئ الذى يطارده.. وطال به المسير.. وبدأت حرارة الشمس فى التوهج، ورائحة (الطعمية) تضرب أنفه الذى يعذب بطنًا لم تتذوق شيئًا منذ عصر الأمس ولكنه سيحتمل من أجلها.. من أجل ريم
ما أجمل اسمها ! له مذاق الشيكولاتة ..وهو يعشق الشيكولاتة .. لم يعرف تامر فى سنوات الجامعة الثلاث الماضية فتاة غير ريم ولم ير فى حياته فتاة فى جمالها وذكائها ورقتها .. نشأت بينهما علاقة بسيطة على الإنترنت من خلال تعليق بسيط على منشور يخص أحد الشخصيات العامة، ومن هنا بدأ التعارف.. أخبرته

أنها لا تستعمل الفيس بوك كثيرًا وأنها تفضل البريد الاليكترونى ، فتبادلا (الإيميل) وبدأت المحاورات بينهما تتشعب وتنمو.. عرف عنها أنها ريم الحسينى الطالبة بكلية التجارة بأحد جامعات الولايات المتحدة حيث تعيش مع أسرتها هناك ، سافرت لأمريكا منذ عامين لذلك فهى تتابع الأخبار فى مصر وتتابع صديقاتها وأصدقائها بصفة مستمرة ..كانت ريم قمحية اللون عسلية العينين كستنائية الشعر تهتم بالصحافة والإعلام والفن،كم تحدثا سويًا وكم ملأت ساعاته بالبهجة والسعادة، وآنست لياليه الموحشة بدفء حديثها الذى يحتضن وحدته.. رقيقة المشاعر حالمة خيالية.. تداعب بهمساتها الحانية خواطره اليائسة برفق فتتفتح معها زهرات الأمل...

أيقظه من شروده صوت حاد دوى فى أذنه لصرير إطارات سيارة وقفت فى نصف الشارع فجأة ، تلفت حوله باحثًا بعينيه عن (سايبر) مازال مفتوحًا فلم يجد ..قرر ألا يستسلم وهو يعبر الطريق شاحذًا كل انتباهه حتى وصل الناحية المقابلة.. وتوغل فى طريق آخر فرعى ومازال يبحث حتى استطاع الشرود أن يختلس يقظته مرة أخرى

تذكر أول مرة يحدثها فيها على فيس بوك .. وحين أرسلت له إيميلها ،كم شعر بالسعادة لأنه سيجد من يؤنس وحدته ، فالمعروف عن تامر عبدالسلام أنه بلا

أصدقاء ..طالب بكلية الفنون الجميلة.. لا تكاد تراه .. فهو قصير القامة أسمر اللون تجد فى عينيه السوداوين الواسعتين شجنًا غريبًا يجعلك تشعر نحوه بالألفة والعطف ..تريد أن تربت على ظهره، فنان يحب الرسم لذا قرر أن يهب حياته من أجله.. يسكن فى شقة فى بمفرده أثناء فترة الدراسة يقضى أيامه بها تتخللها أحيانًا زيارات لأهله بالإسماعيلية ، لم يكن له أصدقاء وإنما كانت أيامه مع الورق والقلم الرصاص والفرشاة والألوان إلى أن أشرقت ريم فى ظلام لياليه، توطدت علاقته بها وأرسلت له على الايميل صورًا لها ..كانت متعته الوحيدة بعد الرسم هى التنزه فى حديقة ذكرياتها ومشاهدة صورها، وبدأ يحاول أن يرسم صورها على غرار ما أرسلته ثم يرسله لها ..فكانت تحب ذلك منه ويسعدها ويسعد هو لسعادتها، حكت له كل شئ عنها وعن عائلتها وأصدقائها ..عرفهم جميعًا دون أن يراهم، وحكى لها كل شئ عن عائلته ولم يحك عن أصدقائه لأنه بلا أصدقاء..

أمس الأول أخبرته أنها سعيدة معه وأنها تحب أحاديثه الشيقة فأجابها أنه أسعد أهل الأرض إذ يسمع ذلك منها ، ومن ساعتها وهو يقلب فى الإيميل منتظرًا رسالتها على أحر من الجمر ..هل ستخبره أنها قادمة إلى مصر ويجود الزمان برؤياها؟ ياله من حلم!

أم تراها ستخبره أنها معجبة به؟.. لابد أنها لاحظت أنه لايستطيع أن يخبرها بإعجابه.. ولكنها عرفت.. أحست بمشاعره من حديثه معها.. أحست حبه دون أن يتكلم.. ترى أى مفاجأة تجهز له؟

العجيب أنها لم ترد من ساعتها رغم أنه أرسل لها عشرات الرسائل

أفاق من شروده على صوت حافلة عبرت بجانبه وكاد لفح هوائها يطيح به من فوق الرصيف، فالتفت يسارًا و....أخيرًا وجد مايبحث عنه.. مقهى إنترنت مفتوح.. وبه كهرباء.. يالمحاسن الصدف!.. اخترق الباب بلهفة تعجب لها صاحب المكان وجميع رواده ولكنه لم يبالى بل سأله بلهفة عن جهاز شاغر ليرد الرجل

- للأسف يا أستاذ كل الأجهزة مشغولة

حاول أن يفهمه أن الأمر عاجل حاول أن يتوسل:

-أرجوك أنا لا أريد أكثر من خمس دقائق لأمر بالغ الأهمية

إلا أنه فوجئ به يرد بغلظة:

هل تريد منى أن أطرد أحد الموجودين لأجلسك مكانه ..شئ غريب!

كاد يرحل يائسًا بائسًا لولا أن سمع صوتًا صغيرًا رقيقًا يهمس:

- «اتفضل على جهازى ياعمُّو»

التفت للطفل الجميل ممتنا ثم بسرعة البرق فتح حسابه وانتظر ليتم التحميل، انتظر تمهيدًا لقراءة الرسالة المنتظرة.. الرسالة الحبيبة .. الرسالة التى جعلته يجوب الشوارع ليقرأها ولما فتحها وجد كلمتين :

- أشعر بالملل!

دارت به الدنيا وهو يحدق فى الشاشة البيضاء إلى أن سمع همسة صغيرة بجواره فالتفت يحدق فى ملامح الطفل بذهول مندهش وهو يسأله:

«خلّصت ياعمو»

*****

الفهرس

- سر النجاح	٥
- الحب المستحيل	١٦
لوجه الله	٢٤
- إنى راحلة!!	٣١
-تكنولوجيا	٣٦
-شاهد على (العصر)	٤٢
- أصعب قرار	٥٠
- أنوثة	٥٩
- أحلام	٦٤
- غراب	٧٠
- ضد التيار	٨٠
- الآخرون	٨٥
- الثلاثة يحبونه!	٨٩
- نظرة خاطئة فى توقيت خاطيء	١٠٠
- طاووس بلا ريش	١٠٨
-رسالة	١١٩